الجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية

وزارة التعليم العالي والبحث العلمي

جامعة الجزائر :02

كلية الآداب واللغات

قسم اللغة العربية وآدابها

تداولية الخطاب في بلاغة القزويني من خلال كتاب " الإيضاح في علوم البلاغة".

مشروع مذكرة لنيل شهادة الماجستير

تخصص : الدراسات اللغوية

إعداد الطالب :

* السبتي كيحل

إشراف الدكتور :

* مولود بغورة

أعضاء لجنة المناقشة :

د/.....رئيسا

د/.....مشرفا ومقررا

د/.....عضوا مناقشا

د/.....عضوا مناقشا

السنة الجامعية :

2014 -2015 م

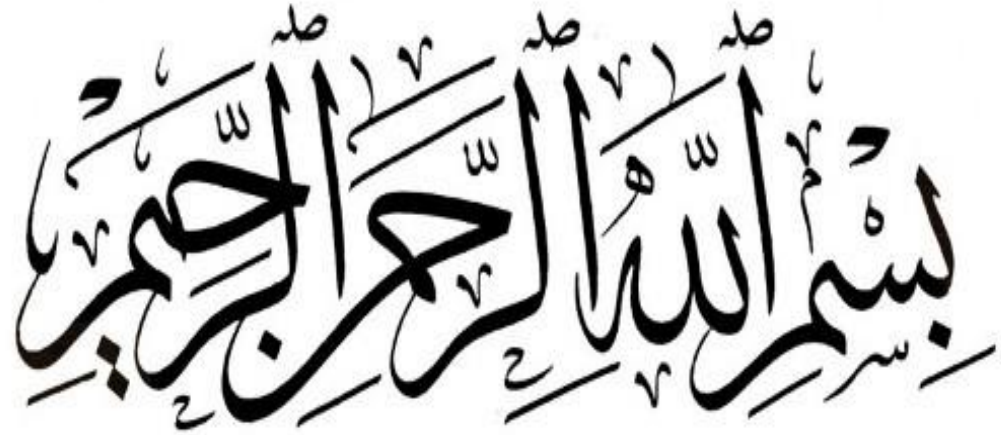
بسم الله الرحمن الرحيم

شكر وعرفان

أتقدم بأسمى عبارات التقدير والشكر إلى الأستاذ المشرف الدكتور" مولود بغورة" الذي تابع مسيرة هذا البحث منذ كان بذرة إلى أن استوى على سوقه، فكان لنا نعم العون ونعم المرشد ، كما لا يفوتني أيضا أن أشكر كل من ساعدني من قريب أو بعيد في إخراج هذا البحث إلى النور أمثال الاستاذ : الدكتور محمد الحباس ، والدكتور أحمد حساني ، والدكتور خليفة بوجادي،والدكتور صابر الحباشة، وغيرهم لأنهم لم يضنّوا علينا يوما بتوجيهاتهم وأرائهم السديدة، كما لا ننسى أعضاء اللجنة الذين قبلوا مناقشة هذه الرسالة، إلى أولئك جميعا أقول :
اللهم أجزهم عنا خير الجزاء .

الإهداء

إلى بعز التضحية ومدرسة الصبر الوالدة الكريمة التي انتظرت طويلا
وتحملت من أجلنا عناءا كثيرا لكي ترانا نكبر ونحصد ما كانت تتمناه،
حفظها الله ورعاها وجعلها تقطف خير الثمار
إلى جميع أفراد العائلة صغيرا وكبيرا .
إلى كل من علّمني حرفا فصرت عبدا له .
إلى هؤلاء جميعا أهدي ثمرة هذا العمل .
ولله الحمد من قبل ومن بعد .

مقدمـــــة

مقدمـــــــــــة :

الحمد لله منشئ الخلق من عَدَمٍ ثم الصلاة على المختار في القِـــــدَمِ .

وبعد نقول :

لا يـزال يعتبـر تراثنـا اللغـوي العربـي مجـالا خصـبا لمختلـف الدراسـات المعاصـرة علـى اختلاف مناهجها و اتجاهاتها،وذلك من منطلق أنـه يتربـع علـى خصـائص لغويـة و قيميـة ثريـة و متنوعة ، بحيث لا نجد منهجا جديدا- خاصة في مجال الدراسات اللغوية - إلا ووجد لـه في هذا التراث إشارات واضحة إلى كثير من قضاياه الجوهرية، و التي لم تعرفها اللسانيات العربية إلا حديثا.

و من خـلال وقوفنا علـى بعض هذه المنـاهج كـالمنهج البنيوي و التوليدي التحويلي لاحظنا قصورهما على دراسة اللغة دراسة وصفية تجريدية خالصة، لا تحفل بأي طرف خارجي، ومن ثمـة رميـت بـالعجز و الفشـل، لأن هـذه المنـاهج لـم تعـد قـادرة علـى ردم الهـوة بـين اللغـة و المجتمع، و لم تستطع حل المشكلات الجديدة التي ظهرت في الممارسات اللغوية باعتبار اللغة مؤسسة اجتماعية ، و ممارسة تخاطبية تفاعلية بين ذوات متكلمة و أخرى مستمعة، وعليه كان لابد من منهج لغوي جديد يسد تلك الحاجات المجتمعية.

وبنـاءا علـى ذلـك يمكـن فهـم مجـيء مـا يعـرف باللسـانيات التداوليـة أمـرا اسـتدعته الحاجـة المجتمعية من أجل ضمان نجاعة الاتصال باعتبار هذا المنهج علما تواصليا جديدا، يدرس اللغـة أثنـاء اسـتعمالها بمراعـاة أحـوال المتكلمين و السـامعين ،والنظـر إلـى ظـروفهم ومقامـاتهم الخارجية .

و عليه ارتأينا أن نتوسل هذا المنهج ، و نقوم في ضوئه بفعل قرائي لمدونـة تراثيـة فـي علم البلاغة ممثلا في كتاب**الإيضـاح فـي علـوم البلاغـة للخطيـب القزوينـي**، باعتباره واحدا من أهم

المؤلفات الجليلة في مجال علوم اللغة عموما والبلاغة خصوصا . و آثرنا أن يكون موضوع البحث و الدراسة موسوما بـ :**تداولية الخطاب في بلاغة القزويني من خلال كتاب الإيضاح...**

و نحن في هذا البحث نحاول ـ بإذن الله ـ أن نلج إلي أعماق هذا الكتاب واكتشاف أسراره، بغية تحيين الدرس البلاغي القديم ، و بعثه من جديد لمسايرة البلاغة الحديثة مفترضين منذ البداية وجود كثير من قضايا التداولية في هذه المدونة والذي دعانا إلى طرق هذا الموضوع هو جملة من الأسباب، أهمها :

- ✓ تبيان مدى إسهام التراث العربي في بناء الدراسات الحديثة والنظريات المعاصرة .
- ✓ العودة بالبلاغة القديمة إلى الساحة الأدبية واللغوية كمحور أساس في بناء بلاغة جديدة ، و إبراز الجوانب المضيئة في تراثنا اللغوي، و نفض الغبار عنه بغية تحديثه وتطويره.

و بعدما قمنا بفعل قرائي لهذه المدونة التراثية، ظهرت لنا جملة من التساؤلات والإشكالات حاولنا حصرها فيما يلي :

ـ هل يمكن أن نتوصل إلى إيجاد بعض المفاهيم التداولية وقضاياها في الدرس البلاغي القديم، وبالضبط في كتاب الإيضاح ؟

ـ إلى إي مدى أسهم العرب في التأسيس للدرس اللساني الحديث ...؟

- هل يمكن أن تكون التداولية بعدّها منهجا جديدا أداة ملائمة لقراءة تراثنا اللغوي ...؟
- وهل بمثل هذه المقاربة اللغوية نستطيع بناء بلاغة عربية جديدة وحديثة ...؟

وللإجابة على هذه التساؤلات سار البحث وفق بنية أو خطة وزعت كالأتي :

***المقدمـــة :** وقد تمت فيها الإشارة إلى الدرس اللغوي عامة والدرس التداولي على الخصوص ، مع الحديث عن أسباب اختيارنا لهذا الموضوع ، ثم طرح الإشكالية التي نريد الإجابة عنها من خلال هذا العمل .

***الفصل الأول :**

كان عرضا نظريا خالصا للجهاز المفاهيمي للسانيات التداولية، بدءا بتعريفها، ثم تتبع مسار نشأتها وتطورها وأهم أقسامها وأشكالها ، وكذلك علاقتها بالتخصصات الأخرى .

***الفصل الثاني :**

وكنا قد خصصناه للجانب التطبيقي ،إذ حاولنا من خلاله الوقوف عند أهم المفاهيم التداولية التي استوقفتنا ونحن ندرس هذا الكتاب ،وعليه كان عنوان الفصل موسوما بـ : **أبرز المفاهيم التداولية في كتاب الإيضاح** ،على نحو، نظرية أفعال الكلام ، والاهتمام بعناصر الخطاب (متكلم وسامع وكلام) ، ومبادئ التخاطب ،والقصد ، والسياق ،ومتضمنات القول وغيرها .

***الفصل الثالث :**

وفيه بسطنا الحديث عن جملة من التقنيات البلاغية التي تؤدي بالأذهان إلى الإقناع والإذعان ، لأنه لا يخفى على أحد ما للصور البلاغية والبنيات الأسلوبية بجميع أشكالها من تأثير مباشر في تحريك نفوس السامعين وإشباع عواطفهم ، وإقناع عقولهم، وعليه تتبعنا المنحى الحجاجي في جميع هذه البنيات البلاغية المختلفة التي تضمنها الكتاب ، كبنية الحذف وبنية القصر والتقديم والتأخير وبنية الاستعارة والكناية والطباق والمقابلة والتورية وغيرها .

***الخاتمة** :كانت عبارة عن حوصلة لنتائج قد أسفر عنها هذا البحث .

وأما فيما يتعلق بمصادر البحث ومراجعه فكانت متنوعة ، فمنها ما يتصل بالمعاجم و منها ما يتصل بعلوم البلاغة وعلوم اللغة قديما وحديثا ، وبعلم الأصول ومن الدراسات التي قاربت هذا الموضوع وقد استفدنا منها كثيرا ما يلي:

- التداولية عند العلماء العرب، د/مسعود صحراوي.
- في اللسانيات التداولية مع محاولة تأصيلية في الدرس العربي القديم، د/ خليفة بوجادي
- المقاربة التداولية ،فرانسواز أرمينكو

– الحجاج في القرآن الكريم ،د/عبد الله صاولة

– والابعـاد التداوليـة للإسـناد الخبـري فـي شـروح التلخـيص التـي قـام بهـا الباحـث صـابر الحباشة ،وهي دراسة أسهمت بشكل مباشر في بلورة هذا المشروع وتمثل آلياته وضبط كثير من مصطلحاته .

وبعد هذا حق لنا القول:أن مقاربتنا هذه لم تنطلق من فراغ.

ـ أمـا عـن المـنهج المتّبـع والـذي نـراه يتناسـب مـع هـذا النـوع مـن الدراسـات ، هـو المـنهج التكاملي،لأنـه جمـع بـين مجموعـة مـن المنـاهج، مثـل الوصـفي والاسـتقرائي وكـذا التـاريخي والمقارن .

وختاما ، نسأل الله العزيز العليم ، أن يلهمنا السداد والرشاد .

مدخـــــــل

البلاغة العربية ، المفهوم والمسار .

يرجع مدلول مصطلح البلاغة إلى الجذر اللغوي (بلغ)، وتتفق معظم المعاجم اللغوية على أن معناه يدور حول وصول الشيء إلى غايته ومنتهاه ، وقد أشار أبو هلال العسكري إلى أصل استخدام هذا المصطلح بقوله: "أن البلاغة من قولهم بلغت الغاية، إذا انتهيت إليها، وبلغتها غيري .."[1].

أما فيما يخص مفهومه الاصطلاحي، فهو لا يخرج من دائرة المفهوم اللغوي لها والمتمثل في الانتهاء والوصول على نحو ما ذكر أبو هلال العسكري : البلاغة كل ما تبلغ به المعنى قلب السامع فتمكنه في نفسه كتمكنه في نفسك ، مع صورة مقبولة ومعرض حسن [2].

ومن بين الأوائل الذين تحدثوا عن البلاغة إبن المقفع (ت 143 هـ) فقد سئل ما البلاغة ؟ قال :" البلاغة اسم جامع لمعان تجري في وجوه كثيرة، فمنها ما يكون في السكوت، ومنها ما يكون جوابا ومنها ما يكون ابتداء ... فعامة ما يكون من هذه الأبواب الوحي فيها والإشارة إلى المعنى ، والإيجاز هو البلاغة "[3].

وينقل لنا الجاحظ كلام العتابي (ت 220هـ) حول مفهوم البلاغة إذ يقول :" كل من أفهمك حاجته من غير إعادة ولا حبسة ولا استعانة فهو بليغ "[4] .

وهي عند الجاحظ : لا يكون الكلام يستحق اسم البلاغة حتى يسابق معناه لفظه ولفظه

---

[1] ابو هلال العسكري، الصناعتين ،الكتابة والشعر،تح علي محمد بجاوي صيدا بيروت 1986 ص :06.

[2] م ن، ص 10

[3] الجاحظ ، البيان والتبيين ، تح عبد السلام هارون دار الجيل بيروت لبنان ، دط ، دت ،ص 115، 116.

[4] البيان والتبيين ، ص 113

معناه "[1] فأول ما تنصرف إليه البلاغة هو الإبلاغ، وكيفية التأثير في الآخر وإقناعه وبيان المقاصد التي يتوخاها من القول، فالبلاغة تنطلق من المتكلم وقصده ثم تتجه نحو السامع باعتباره المعني بالكلام فتراعي جميع أحواله ، وبعدها توجه عنايتها إلى الخطاب ذاته فتضع له شروطا حتى يصير خطابا بليغا ناجحا .

ولعلنا لا نجانب الصواب إذا قلنا إن من أبرز الظواهر المتصلة بالبلاغة العربية مبدأ مقتضى الحال، الذي جعله البلاغيون العرب محورا أساسا في بناء الخطاب البلاغي الإقناعي، وتعد صحيفة بشر بن المعتمر (ت 220 هـ) التي نقلها الجاحظ من أهم المعالم في إرساء الفكر البلاغي العربي : " وإنما مدار الشرف على الصواب وإحراز المنفعة مع موافقة الحال ، وما يجب لكل مقام من مقال ... وينبغي للمتكلم أن يعرف أقدار المعاني ويوازن بينها وبين أقدار المستمعين ، وبين أقدار الحالات ، فيجعل لكل طبقة من ذلك كلاما ولكل حالة من ذلك أقدار المعاني ، ويقسم أقدار المعاني على أقدار المقامات وأقدار المستمعين على أقدار تلك الحالات "[2].

والملاحظ على كلام بشر بن المعتمر أنه تنبه مبكرا إلى فكرة مراعاة الحال والذي معناه أن يراعي المتكلم قدرة مخاطبيه ومنزلتهم اللغوية والاجتماعية والنفسية والذهنية والثقافية ...الخ لأنه من دون مراعاة ذلك لا يمكن لمنشئ الخطاب أن ينجح في استمالة المخاطب

[1] م ن ، ص133.

[2] البيان والتبيين ، ص 138 / 139.

وإقناعــه، فالوضــعيات تختلــف والمراتــب تتبــاين والأفهــام تتفــاوت ، وعليــه بنــى الجــاحظ كلامـه عنـدما قـال :" فـإن الوحشـي مـن الكـلام يفهمـه الوحشـي مـن النـاس كمـا يفهـم السـوقي رطانة السوقي وكلام الناس طبقات كما أن الناس أنفسهم طبقات "[1].

وعلـى أسـاس فكـرة مقتضـى الحـال ، صـنفت البلاغـة العربيـة – فيمـا بعـد – المخـاطبين الـذين يلقى إليهم الخبر إلى ثلاثة أصناف :

- مخاطب خالي الذهن .
- مخاطب شاك ومتردد .
- مخاطب جاحد منكر .

فموازنة الكلام مع الموقف هو الذي يعنيه القزويني (ت 739 هـ) بتعريفه للبلاغة : " بأنها مطابقة الكلام لمقتضى الحال مع فصاحته "[2].

وهـذا التعريـف كتـب لـه مـن الـذيوع والانتشـار ممـا جعلـه يتـردد فـي كثيـر مـن الكتـب إلـى يومنا هذا .

ويظهـر اهتمـام البلاغيـين بمبـدأ مقتضـى الحـال عنـدما ضـبطوا التناسـب الـدقيق بـين شـكل التركيـب ومضـمونه، ومـا يتطلبـه المقـام والغـرض مـن جهـة أخـرى لأن مقامـات الكـلام متفاوتـة " فمقام الشكر يباين مقام الشكاية ،ومقام التهنئة يباين مقام التعزية ، ومقام المدح يباين مقام الذم ومقام الجد يباين مقام الهزل [3].

---

[1] البيان والتبيين ، ج1 ، 144.

[2] الإيضاح ، ص "05.

[3] البيان والتبيين ، ص 168.

و الرأي نفسه ذهب إليه فيما بعد القزويني إذ يقول : "مقامات الكلام متفاوتة ، فمقام التنكير يباين مقام التعريف ... ومقام التقديم يباين مقام التأخير، ومقام الذكر يباين مقام الحذف ... ومقام الإيجاز يباين مقام الإطناب والمساواة ..." [1].

هكذا يبدو أن القول لا يكون مقنعا إذا لم يكن مكيفا بحسب ما تتطلبه فئات المخاطبين ومقامات التواصل .

يتضح لنا من خلال تعريفات القدامى للبلاغة أنها ترتكز على عناصر تخاطبية أساسية وهي (المتكلم والمخاطب ، والخطاب والموقف الخارجي (مقتضى الحال)) .

وهي مرتكزات قد اعتمدتها البلاغة الجديدة واعتدت بها كثيرا في دراستها للغة بصفة عامة وعملية التواصل والإبلاغ والتأثير بصفة خاصة ، مما جعل الباحث صلاح فضل يقف عند نقاط التلاقي بين البلاغتين القديمة والجديدة واعتبر مفهوم الاستعمال ،أي ممارسة للغة في مقام لحدوث التواصل هو جوهر التقاطع والتعالق بينهما ، حتى أمكن نعت البلاغة بفن القول [2].

و يوضح الباحث خليفة بوجادي هذا الكلام ، فيرى أن نعت البلاغة بالفن راجع الى ارتباطها بالذوق وأما نعتها بالقول فهو مرتبط بالأداء والاستعمال الفعلي للغة[3] .

وهو الرأي الذي أشار إليه الباحث محمد العمري عندما قال: " البلاغة العربية قد أعيد لها الاعتبار في الدراسات المعاصرة ، فيما يعرف بالتداولية [4].

وأهم ما ترتكز عليه البلاغة الجديدة في مجال فهم الخطابات وإنجاح التخاطب هو الأداء الكلامي ضمن السياق والمعبر عنه بالمحور اللساني (اللغة) والمحور غير اللساني

---

[1] الإيضاح ، ص 32.

[2] صلاح فضل ، بلاغة الخطاب وعلم النص ، الشركة العالمية المصرية للنشر لونجمان ، ط1 ، 1996 ،ص 123.

[3] ينظر خليفة بوجادي ، في اللسانيات التداولية بيت الحكمة سطيف ، ط2 ،2012 ،ص 155.

[4] ينظر محمد العمري ، البلاغة العربية أصولها وامتداداتها ، افريقيا الشرق ، المغرب ، 1999.، ص214.

(السياق) ، ويؤكد هذا من المحدثين الباحث (ج، ليتش):" أن البلاغة تداولية في صميمها كونها تعنى بممارسة الاتصال بين المتكلم والسامع ذلك أن البلاغة والتداولية تعتمدان على اللغة كأداة لممارسة الفعل على المتلقي بحسب موقف التواصل والتلقي "[1].

وقد أشار الباحث تمام حسن الى تعرض البلاغيين العرب للسياق بنوعيه وتحليلهم له في إطار معالجتهم لفكرة" **لكل مقام مقال** " فوجد أنهم سباقون فى ذلك للدرس الاوربي بزمن كبير، فيقول: ولقد كان البلاغيون عند اعترافهم بفكرة المقام متقدمين ألف سنة تقريبا على زمانهم، لأن الاعتراف بفكرتي المقام والمقال باعتبارهما أساسين متميزين من أسس تحليل المعنى ، يعتبر الآن من الكشوف التي جاءت نتيجة لمغامرات العقل في دراسة اللغة[2] .

وبعد هذا العرض المفاهيمي حول الدرس البلاغي ، يمكننا تقديم عرضا آخر يخص مسار ونشأة البلاغة العربية بدءا بزمن سيبويه إلى صاحب مدونة هذا البحث **الخطيب القزويني** فنقول في البداية : نشأت البلاغة العربية شكل كل علم في بدايته ، فلقد كان علماء الدراسات اللغوية والقرآنية في فترة تكوين علومهم الأولى بلاغيين بأتم معنى الكلمة بقدر ما كانوا مفسرين ولغويين ، ولكن ملاحظاتهم البلاغية كانت عبارة عن اشارات يسيرة وجزئية، وسرعان ما تحولت الى صرح علمي قائم بذاته موسوم **بعلم البلاغة** ، ومن أبرز المؤسسين لهذا الصرح العلمي ، ما يلي :

أ ـ أبو بشر عمر بن عثمان سيبويه (تـ 180 هـ) ، صاحب الكتاب النحوي (الكتاب) فقد أورد فيه و تحت مصطلح الاتساع في الكلام صورا ونماذج من التعبير اصبحت فيما بعد مباحث بلاغية كحديثه عن الإيجاز والاختصار و التقديم والتأخير والاستفهام...الخ، وهي إشارات أحرزت السبق في هذا المجال و قد نوه بها الإمام الجرجاني في كتابه دلائل الاعجاز.

[1] صلاح فضل ، المرجع السابق ، ص 80.

[2] تمام حسن اللغة العربية معناها ومبناها ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ط2 1979 ص 385

ب ـ أبو عبيدة عمر بن المثنى (ت : 208 هـ) ، واضع كتاب مجاز القرآن ، وقد وردت في ثناياه مسائل بلاغية مختلفة ، وان لم يسمها هو باسمها وإنما نهج في تحليل بعض الآيات نهجا بلاغيا كتعرضه للمجاز والالتفات وغيرها .

ج ـ أبو عثمان عمرو بن بحر (الجاحظ) (ت : 255هـ)، مؤلف كتاب البيان والتبيين ، هذا الكتاب الذي يعد فتحا عظيما في مجال البلاغة ، والحقيقة ان جهود الجاحظ في هذا المجال يضيق عنها المقام هنا ، إذ يكفينا أن الكتاب ذو منحى بلاغي بامتياز ،بالاضافة الى كتابه الآخر الحيوان الذي تضمن اشارات بلاغية كثيرة .

دـ أبو عبد الله محمد بن مسلم بن قتيبة (ت 276 هـ) ، صاحب كتاب تأويل مشكل القرآن وقد بدل فيه صاحبه جهدا طيبا في الرد على شبهات الطاعنين في أي القرآن، مضمنا إياه كثيرا من المباحث البلاغية كالمجاز والإطناب والاستعارة ... ومخالفة ظاهر اللفظ لمعناه ...إلخ.

هـ ــ أبو العباس عبد الله بن المعتز (ت:296 هـ)، واضع كتاب البديع وهو أول كتاب منهجي في علوم البلاغة، يتضمن ثمانية عشر فنا بلاغيا وهذه الفنون كانت نواة لمن جاء بعده و قد أطلق على الخمسة الأولى منها اسم البديع ، وعلى الباقي محاسن الكلام .

و – أبو الفرج قدامة بن جعفر (ت 337) ، صاحب كتاب نقد الشعر وهو وإن كان همه هو ليس التأليف في علوم البلاغة ، لكنه تطرق إلى كثير من فنونها كالتشبيه والمقابلة والتتميم والمبالغة والإلتفات والإرداف..الخ

زـ أبو هلال الحسن بن عبد الله العسكري (ت 395 هـ) ، صاحب المؤلفات العديدة في اللغة والنقد والأدب والذي يهمنا هنا هو : **كتاب الصناعتين**، الكناية والشعر، وهو أول كتاب منهجي بعد بديع ابن المعتز ، وبلغت الفنون البلاغية في هذا الكتاب خمسة وثلاثين فنا، واطلق على

جميعها اسم البديع وفيها مباحث بيانيه ومعانيه وبديعيه كالاستعارة والايغال والتذييل والطباق والتجنيس وغيرها .

حـ ـ أبـو الحسن بـن رشيق القيروانـي (ت 463 هـ) ، صاحب كتاب العمدة في صناعة الشعر ونقده ، إذ وبعد حديثه عن الشعر نجد عنايته الفائقة بفنون البلاغة مبتدأ بالحديث عن المجاز ثم يتلوه باب الاستعارة و أنواعها ثم باب التمثيل ثم الكناية والتلويح وغيرها كثير .

طـ أبو محمد عبد الله بن سنان الخفاجي (466) ، صاحب كتاب سر الفصاحة ، وللكتاب نصيب كبير من اسمه وقد حفل إلى جانب الدراسات اللغوية والأدبية والنقدية بمسائل بلاغية بداية بتحديد معنى الفصاحة في المفردات والتراكيب وبحثه في المعاني وعلم البيان كالاستعارة المحمودة والمذمومة.

ولكن ابن سنان لم يفرق بين الفصاحة والبلاغة ويظهر ذلك في تعريفه للفصاحة على أنها : عبارة عن حسن التأليف في الموضوع المختار، وهو تعريف يليق بالبلاغة أيضا[1].

ي ـ أبـو الحسن محمد بن الطاهر الشريف الرضي (ت : 406 هـ) ،واضع كتابي" تلخيص البيان في مجازات القرآن " ثم " المجازات النبوية ".

وقد تتبع الشريف الرضي القرآن الكريم سورة سورة مشيرا إلى كل صورة أو مجاز تراءى له في هذه النصوص وكذلك فعل مع النصوص النبوية .

كـ القاضي أبو الحسن عبد الجبار (ت 415هـ) ، صاحب كتاب إعجاز القرآن ، والقاضي معاصر للباقلاني (ت 406 هـ) ولهما نفس العنوان ، تعرض القاضي في مؤلفه إلى الفصاحة وأسرارها وأسبابها ووجد أنها تقوم على ركيزتين هما : جزالة اللفظ وحسن المعنى ، ومن أبواب البلاغة التي تحدث عنها : التكرار وأنواعه والتطويل والإيجاز ...الخ

[1] سر الفصاحة ، الخفاجي ، تر عبد المتعالي، دار الكتب العلمية بيروت ، لبنان ، ط1، ص 1982.

ل ـ عبد القاهر أبو بكر بن عبد الرحمان الجرجاني (ت 471هـ) ،صاحب كتابي "دلائل الإعجاز" **وأسرار البلاغة** " فهو ـ إذن ـ لم يبدأ من فراغ فقد تجمعت بين يديه ثمار أربعة قرون كاملة فكان دور الإمام عبد القاهر دور الآخذ والمعطي والمجدد ، جاعلا من فكرة النظم أساس البلاغة والتفاضل وليس الكلمات المفردات ، فجوهر الإعجاز في نظره هو النظم والتأليف وهذا جديد عنده لم يسبقه إليه أحد .

م ـ أبو يعقوب يوسف بن أبي بكر السكاكي (ت 626هـ) ، صاحب كتاب مفتاح العلوم ، قسم كتابه إلى ثلاثة أقسام ، فالقسم الأول جعله لعلم الصرف وما يتصل به ، والقسم الثاني لعلم النحو ، ثم خص القسم الثالث لعلم المعاني وعلم البيان وألحق بهما نظرة خاصة في الفصاحة والبلاغة ودراسة للمحسنات البديعية، وفي كتابه نجد الدقة والقدرة البارعة على التبويب والتقسيم والتفريع ، باختصار فقد تحولت البلاغة عنده الى علم بأدق المعاني، فهي قوانين وقواعد جافة تخلو من كل ما يمتع النفس .

ن ـ محمد بن عبد الرحمان بن عمر الخطيب القزويني (ت 739 هـ) ، صاحب كتابي التلخيص و الإيضاح في علوم البلاغة، هذا الأخير الدي أعاد فيه توضيح ما كان قد قام به من تلخيص لكتاب المفتاح .

وفي كتابه الإيضاح وبعد أن شرح مفهوم الفصاحة انتهى إلى تعريف البلاغة على أنها :" مطابقة الكلام لمقتضى الحال مع فصاحته " وهذا تعريف ظل ساريا ومنتقلا بين الكتب إلى يومنا هذا، ووجدنا القزويني في مؤلفه يتبنى كثيرا من أراء الشيخ الجرجاني .

إلى هذا الحد من السرد لمسار الدرس البلاغي العربي و من غير أن نغفل جهود باقي العلماء الدين لم نأت على ذكرهم، أمثال الخطابي والرماني والباقلاني والزمخشري وابن الأثير، فجهودهم لن تقل أهمية في بناء الصرح البلاغي العربي .

وهكذا يمكن القول : أن القرآن الكريم كان الباعث على تصنيف هذا الكم الهائل من الكتب البلاغية المرتبطة بتفسير و فهم آياته. و لهذا جعل أبو هلال العسكري تعلم البلاغة فرضا على من يريد التعرف إلى بلاغة القرآن وإعجازه ، قال : "إن أحق العلوم بالتعلم وأولاها ـ بعد المعرفة بالله ـ عِلم البلاغة ومعرفة الفصاحة والذي به يعرف إعجاز كتاب الله تعالى "[1].

[1]– الصناعتين ، المرجع السابق ، ص : 07.

الفصل الأول

الجهاز المفاهيمي للدرس التداولي :

- ❖ مفهومـه ، نشأته، تطوره.
- ❖ أهم مجالاته .
- ❖ علاقته بحقول معرفية أخرى .
- ❖ مهامـــه وأهميته.

المفهوم المعجمي للتداولية .

يعود أصل هذا المصطلح إلى الجذر "دَوَلَ " ، ولا تكاد المعاجم تختلف في مفهومه ودلالته، فقد ورد في مقاييس اللغة على أصلين :" أحدهما يدل على تحول شيء من مكان إلى آخر، والأخر يدل على ضعف واسترخاء، فقال أهل اللغة : أندال القوم إذا تحولوا من مكان إلى آخر، ومن هذا الباب تداول القوم الشيء بينهم إذا صار من بعضهم إلى بعض ..." [1].

وجاء في لسان العرب الدولة والدولة : العقبة في المال والحرب سواء، وقيل الدولة بالضم في المال ، والدولة بالفتح في الحرب، وقيل هما سواء [.....] وعن الجوهري : الدولة بالفتح في الحرب، أن تدال إحدى الفئتين على الأخرى ، يقال كانت لنا عليهم الدولة ... بالضم في المال، يقال: صار الفيء دولة بينهم يداولونهم مرة لهذا ومرة لهذا، والجمع دولات ودول ... وفي حديث أشراط الساعة : إذا كان المغنم دولا جمع دولة بالضم، وهو ما يتداوله من المال، فيكون لقوم دون قوم "[2].

وبالمعنى نفسه ورد في أساس البلاغة للزمخشري : " دالت له الدولة ودالت الأيام بكذا، وأدال الله بني فلان من عدوهم : جعل الكثرة لهم عليه [...] وإليه يداول الأيام بين الناس مرة لهم ومرة عليهم، والدهر دول وعقب ونوب ، وتداولوا الشيء بينهم[3].

وفي القاموس المحيط : الدولة انقلاب الزمان من حال إلى حال، الدولة : العقبة (النوبة) في المال، وتداولوه أخذوه بالدولة، أي نوبا ، وتداولته الأيدي ، أخذته هذه مرة وهذه مرة " [4].

---

1 ابن فارس، معجم مقاييس اللغة، تحقيق وضبط،ع ،س هارون ، دار الجيل ، ط2، ،1991،ج2،ص:314.

2 ابن منظور، لسان العرب، دار صادر، بيروت، لبنان ، د، ت ،ط1955،1، ج1،ص: 225.

3 الزمخشري، أساس البلاغة، تحقيق ع الرحيم محمود دار المعرفة بيروت ، 1982، ص :139.

4 الفيروز أبادي، القاموس المحيط، دار الجيل ، بيروت لبنان، د،ت ،ج.4،ص:42.

ومن الشواهد على استخدامه في القرآن الكريم " وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ" [سورة آل عمران 140] ، ورد تفسيرها عند الزمخشري في الكشاف : "تداولها " : نصرفها بين الناس، نديل تارة لهؤلاء وتارة لهؤلاء "[1] .

ومن الشواهد الأخرى في القرآن قوله تعالى:"مَّا أَفَاء اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ مِنْ أَهْلِ الْقُرَى فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ كَيْ لا يَكُونَ دُولَةً بَيْنَ الأَغْنِيَاء مِنكُمْ " [سورة الحشر :07].

يتضح لنا من خلال هذه التعريفات ، أن معنى لفظ (دول)، لم يخرج من مجال التحول، والتناقل، والانتقال ، وهو لفظ مأخوذ من الصيغة الصرفية " تفاعل " التي تدل على تعدد حال الشيء وتناقله وتحوله ، كما أنه يفيد المشاركة والتفاعل.

والنتيجة من هذا أن حال اللغة كالمال والحرب وغيرها، فهي منتقلة ومتبادلة بين الناس في حياتهم اليومية أثناء ممارستهم لهذا النشاط التواصلي التفاعلي ، وعليه كان مصطلح التداولية أكثر ملاءمة ومناسبة من غيره من المصطلحات الأخرى ، كالنفعية والذرائعية والسياقية ...إلخ .

[1] الزمخشري، الكشاف ، دار المعرفة بيروت د ط/ د ت، ج1،ص:340.

ويعد الباحث طه عبد الرحمان أول من استخدم هذا المصطلح كترجمة للمصطلح الأجنبي ، Bragmatique ، فيقول : " نقل الكلام عن قائليه بمعنى رواه عنه، ويقال دار على الألسن بمعنى جرى عليها ....فالنقل والدوران يدلاّن في استخدامها اللغوي على معنى التواصل ...فيكون التداول جامعا بين اثنين هما : التواصل والتفاعل ..." [1].

لكن الباحث الجزائري عبد المالك مرتاض يرى في ترجمة مصطلح (التداولية) مقابلا للمصطلح الأجنبي ،(Bragmatique)غير مناسب لأن فيه التباسا مع الترجمة للمصطلح (Bragmatisme) المقابل للنزعة الفلسفية الموسومة بالنفعية ، ودرءا لهذا اللبس اقترح مصطلح (التداول) مقابلا لـ (Bragmatique) والتداولية مقابلا : (Bragmatisme) .

[1] ينظر خليفة بوجادي،في اللسانيات التداولية ،ص121.

المفهوم الاصطلاحي للتداولية.

ما تنبغي الإشارة إليه أن مصطلح التداولية من الصعب أن نجد له تعريفا دقيقا وشاملا، والأمر يعزى إلى مجالها الواسع في المنظومة الفكرية الحديثة، ولارتباطها بمصادر معرفية عديدة ، فهي تمثل حلقة وصل هامة بين هذه الحقول المعرفية مثل الفلسفة والمنطق ، وعلم النفس المعرفي ، وعلم الإتصال واللسانيات ، والبلاغة .

وفي شأن هذا الغموض والصعوبة ، تقول الباحثة فرانسواز أرمينكو :"هي درس جديد وغزير إلا أنه لا يملك حدودا واضحة " [1].

ولعل أول صعوبة تصادف التعريف بها هو عدم استقرارها على مصطلح قار، حيث تعددت التسميات العربية المقابلة للمصطلح الأجنبي ، Bragmatique ، فترجمت بـ : البراغماتية، والبراغماتيك والمقامية، والنفعية والسياقية والذرائعية، لكن المصطلح المحمود لدى كثير من الدارسين اللغويين ، هو مصطلح **التداولية** بحكم هيمنته على الاستعمال ، وكذا شيوعه في مقاربات كثيرة .

ومن أهم التعريفات المقدمة للتداولية ، يقول الباحث مسعود صحراوي هي : " إيجاد القوانين الكلية للاستعمال اللغوي والتعرف على القدرة الإنسانية للتواصل اللغوي "[2].

ويعرفها الباحث بن ظافر الشهري على " أنها دراسة المعنى التواصلي، أو معنى المرسل في كيفية قدرته على إفهام المرسل إليه بدرجة تتجاوز معنى ما قاله"[3] .

---

[1] فرانسواز أرمينكو ، المقاربة التداولية، ت ر سعيد علوش ، مركز الإنماء، د ت ، : ص:07.

[2] مسعود صحراوي، التداولية عند العلماء العرب...،دار التنوير للنشر والتوزيع الجزائر ،ط 2008،1،ص24، 25.

[3] عبد الهادي بن ظافر الشهري، استراتيجيات الخطاب، مقاربة لغوية تداولية، دار الكتاب الجديدة بيروت ، (2004)،ص:22.

وعلى الرغم من اختلاف وجهات النظر بين الدارسين للتداولية وتساؤلاتهم عن القيمة العلمية لها ، بعدما كانت في سلة مهملات اللسانيات، فإن معظمهم يقر بأنها دراسة اللغة باعتبارها ظاهرة تواصلية اجتماعية خطابية حجاجية ، وإيجاد القوانين الكلية للاستعمال اللغوي .

وهذه الدراسة لا تنحصر ضمن الكينونة اللغوية بمعناها البنيوي الضيق، وإنما تتجاوزها إلى الاستعمال في الطبقات المقامية المختلفة ، بحسب أغراض المتكلمين وأحوال المخاطبين، بمعنى أخر أن التواصل اللغوي لا يتم فقط بالاستناد إلى الكفاءة اللغوية، بل ترتبط في جوهرها بالذوات المتكلمة والسامعة في مقامات معينة ، والاعتماد على الإحالات غير اللغوية في تفسير البنى اللغوية .

فهي بهذا – التداولية – تعني بما يعنيه الناس بألفاظهم أكثر مما تعينه الألفاظ والعبارات في حد ذاتها، وهي تسعى دائما لردم الهوة بين المتلقي والمتكلم ، من أجل خلق تواصل ناجح.

ولا يتم ذلك إلا بفهم الآليات التخاطبية والتمعن الجيد في استراتيجياته التي تتم بطرح الأسئلة من قبيل : من المتكلم ؟ ومع من يتكلم ؟ وأين ومتى ..؟ وتحت أي ظرف ؟ .

و تعد الإجابة عن مثل هذه التساؤلات جوهر الدرس التداولي باعتبارها "... نسق استدلالي عام يعالج الملفوظات ضمن سياقاتها التلفظية، والخطابات ضمن أصولها التخاطبية "[1]

وعلى هذا الأساس تم اعتبارها جزءا من السيميائيات، التي تنظر في العلاقة بين العلامة ومستعمليها، كما أنها تدرس اللغة المستعملة من قبل المتكلمين والتأكيد على ارتباطهم بالسياقات الخارجية، وبيان كيفية فهم المقصود من الذوات السامعة ." فإذا ذكر مستخدم اللغة أو أشار إليه صراحة، تدرج المادة حينئذ تحت حقل البراغماتية [2].

---

[1] مسعود صحراوي، التداولية عند العلماء العرب، ص:25.

[2] التداولية ، علم استعمال اللغة، تنسيق وتقديم ، حافظ اسماعيلي علوي ، ص66.

إجمالا لما سبق ، يمكن القول : أن التداولية هي لسانيات الحوار، أو لسانيات الكلام ، تدرس اللغة بوصفها علما تخاطبيا تواصليا ، يعنى بالأبعاد الخطابية الاستعمالية للغة ونراها " تمثل حلقة وصل هامة بين حقول معرفية عديدة ، منها : الفلسفة التحليلية ، علم النفس المعرفي ... علوم التواصل واللسانيات "[1].

والتداولية لم تكتف بدراسة اللغة لذاتها كما فعلت البنيوية، بل تجاوزتها إلى دراسة استعمال اللغة ، واستدعت عناصر أخرى ذات صلة بهذا الاستعمال وهي : المتكلم والمتلقي والكلام والمقام والتواصل والقصد ...الخ، وهدفها الرئيس هو دراسة اللغة حيز الاستعمال بغية الوصول إلى المعنى السياقي غير المباشر كما يريده المتكلمون، لا كما يريده الوضع اللغوي، فعبارة من قبيل، "السلام عليكم " تعني في أصلها : التحية، لكنها في مقامات أخرى ، قد تؤدي معان غير ذلك ، ترتبط بالسياق الخارجي مثل الوداع، الاستئذان، التهكم ...الخ .

ومنه جاز القول : إن المعنى السياقي هو الأصل ، وليس المعنى الحرفي ، في فهم الخطابات وتأويلها ، و"أثر السياق فيما يقال على نوع الأشخاص الذين يخاطبونهم ومكان الخطاب وزمانه وظروف إنتاجه"[2] .

---

[1] مسعود صحراوي، التداولية عند العلماء العرب،ص16.

[2] عبد السلام عشير، عندما نتواصل نغير، مقاربة تداولية ،افريقيا الشرق ، المغرب ،2012، ص 35.

نشأة التداولـية :

الإنسان حسب نظر الفلاسفة والمناطقة مضطر دائما إلى استخدام نظام من العلامات والأدلة لتمثيل الواقع، والأشياء التي تحيط به، فهو – إذا – محتاج إلى استعمال اللغة ليعبر عن حاجاته لأن " اللغة هي أحسن مرآة للفكر البشري " [1]، ومنه يمكن القول : أن الدرس التداولي نشأ في أحضـان فلسفة اللغـة وأصبـح مجـالا معتدا بـه فـي العقد السـابع مـن القرن العشـرين علـى يـد مجموعة من فلاسفة اللغة المنتمين إلى مدرسة أكسفورد (oxford) ، وهذا ليس معناه أنها لم تؤخذ في التفكير الإنساني القديم، بل تعتبر اسما جديدا لطريقة قديمة في التفكير الإنساني، بدءا بسـقراط، وأرسـطو والـرواقيين[2] ، وأمـا فـي تراثنـا اللغـوي العربـي فالـذين جمعـوا المدونـة اللغويـة العربيـة، بنو عملهم أساسا بالنظر إلى الاستعمال الحاصل من التواصل اليومي، "فالاستخدام بوصفه سابقا على التنظير فكان منطلقهم في استخراج القواعد اللغوية .." [3].

ومثال آخر يذكره السيوطي في شأن اللغة أنها تؤخذ استعمالا لا قاعدة ، فيقول : إذا أتاك القياس إلى شيء ما، ثم سمعت العرب قد نطقت فيه بشيء أخر على قياس غيره، فدع ما كنت عليه "[4].

---

[1] جيلالي، دلاش، مدخل إلى اللسانيات ...،ت ر محمد يحياتن ، ديوان المطبوعات الجامعية،1992 ،ص.11.

[2] نعمان بوقرة، اللسانيات اتجاهاتها وقضاياها الراهنة .ص163.

[3] بن الظافر الشهري، استراتيجيات الخطاب .ص26.

[4] السيوطي، الاقتراح في علم أصول النحو، تح ، محمد حسن إسماعيل الشافعي، دار الكتب العلمية، بيروت ،لبنان ،ط1، 1998،ص116.

ولكن التداولية بعدها منهجا جديدا في التحليل اللغوي، لم تظهر إلى الوجود ، إلا في العصر الحديث، كنتيجة لعجز اللسانيات قبل التداولية ، وهي في ذلك تروم الإجابة على جملة من الأسئلة فرضت نفسها في مجال البحث العلمي، سبق وأن طرحتها الباحثة فرانسواز أرمينكو قائلة :" ماذا نصنع حين نتكلم ؟ ماذا نقول بالضبط حين نتكلم ؟ من يتكلم ومع من ، ولأجل من؟ كيف يمكننا قول شيء آخر غير الذي كنا نريد قوله ؟ ما هي استعمالات اللغة[1] . وبالإجابة عن هذه التساؤلات نكون قد أزلنا غموضا كبيرا طالما اكتنف عناصر التواصل اللغوي .

وما تجدر الإشارة إليه أيضا أن نشأة الدرس التداولي مرّ بمرحلتين اثنتين وهما :

- ***مرحلة الإرهاصات :***

تعد فلسفة"غوتلوب فريجة" ، و"راسل " انطلاقة ملحوظة في تطوير قضايا الفلسفة التحليلية ، ولذلك وجدنا أقطاب هذا التيار يلحون على وصف اللغة في استعمالاتها دون تجريدها من تداولها العادي " [2] ، وذهبوا أكثر من هذا في جعلهم "اللغة موضوعا للدراسة باعتبارها أولى الأولويات في أي مشروع فلسفي يتوخى فهم الكون ومشكلاته فهما صحيحا "[3].

ومن الذين اشتهرت بحوثهم في هذا المجال .

أ . الباحث والفيلسوف ، (**لودفيغ فتغشتاين**)، فنظرته للغة لم تعد مهمتها منحصرة في تقرير الوقائع فحسب ، بل كان همه أن يضع نظرية جديدة في المعنى، جاءت على نقيض النظرة المنطقية الصارمة التي كان قد نادى بها من قبل . إذ أصبح المعنى عنده يظهر في استعمال الألفاظ في المظاهر العامة للاتصال بين مستعملي هذه اللغة، وكل طريقة متميزة لاستعمال

---

[1] فرانسواز أرمينكو، الكتاب ،ص11

[2] خليفة بوجادي ، في اللسانيات التداولية : ص ،41،42

[3] مسعود صحراوي، التداولية عند العلماء العرب ، ص20.

الجملة الواحدة يمكن أن نسميها ـ حسب رأيه ـ لعبة اللغة، وهو بهذه النظرة يكون قد أحرز السبق في إرساء قواعد الدرس التداولي .

ب . **تشارلز بيرس** : يعد هذا الباحث ايضا من الأوائل الذين اهتموا بدراسة العلامة، واعتبرها نشاطا سيميائيا "فالعلامة عنده أوسع من مجالها اللغوي "[1]، بمعنى أنها تتعدى إلى الجانب الاستعمالي فيها وذلك " بتميزه بين التعبير كنمط ، وبين ما يقابله أثناء الاستعمال "[2]"، لأن اللغة لم يعد " ينظر إليها على أنها نظام من الأدلة مستودع من أدمغة المتكلمين، بل على أنها نشاط يتحقق في وضعية خطابية تبادلية "[3]، إذن فالمعنى يستقى من ظروف الاستعمال والتواصل الجاري وهذه الإشارات التي نادى بها هذا الفيلسوف (بيرس) أصبحت فيما بعد أسسا معتمدة كثيرا في فلسفة اللغة التي نشأ في حضنها الدرس التداولي .

ج . **تشارلز موريس** : يعتبر كذلك هذا الفيلسوف ـ الى جانب بيرس ـ من منظري ومؤسسي التداولية ، ظهر هذا واضحا في تقسيمه للدرس السيميائي إلى ثلاثة فروع وهي :

أ. التركيب: (syntax) وهو نحو يدرس علاقة العلامات بعضها ببعض في شكل تركيب صحيح.

ب . الدلالة(sementique) ويدرس علاقة العلامات بما تدل عليه .

ج . التداولية(pragmatique) وتدرس علاقة العلامات بمستعمليها والمؤولين لها .

وأهم ما يميز نظرته إلى اللغة أنها علامات تؤثر على المرسل إليه ، وتهيئه لاتخاذ رد فعل معين، فبنية اللغة في نظره نظام من السلوك [4]. وكذلك العلامة في رأيه ،لا تأخذ قيمتها إلا من

---

[1] فرانسوا ر أرمينيكو ، المقاربة التداولية ،ص15

[2] خليفة بوجادي ، في التداولية ،ص45.

[3] خولة طالب الإبراهيمي مبادئ في اللسانيات...، دار القصبة للنشر، الجزائر، 2000، ص158.

[4] خليفة بوجادي ، في اللسانيات التداولية ،ص46.

خلال الممارسة والاستعمال، ولا يحصل هذا إلا بوجود ذوات متكلمة منتجة للخطاب وأخرى مستمعة لهذا الخطاب ومؤولة له ، وهذا " باعتبار اللغة نشاطا تواصليا ذا طبيعة اجتماعية " [1].

ومما سبق نستنتج أن موريس لا يبتعد كثيرا على تصور بيرس إلا من حيث البعد السلوكي، و تعد الجهود التي قام بها سببا في النهوض بمجموعة من الدراسات اللاحقة ، كدراسة الظواهر النفسية ، والاجتماعية الموجودة داخل اللغة ، وهو لم يكتف بدراسة البنية اللغوية دراسة وصفية كما هي شائعة ، بل أضاف إليها دراسة المعنى، وعلاقة اللغة بمستخدميها أي: "دراسة علاقة العلامات بمستعمليها "[2].

وعلى العموم أن ما يميز هذه المرحلة هو اتفاقها على مسلمة عامة، مفادها أن فهم الإنسان لذاته ولعالمة يرتكز في المقام الأول على اللغة ، وهي وحدها القادرة على حل جميع المشكلات ولا يحصل هذا إلا بالالتفات إلى اللغة الطبيعة،" وقد توجهت الفلسفة في القرن العشرين نحو اللغة ، بل أصبحت فلسفة لغوية، ذلك ما تدل عليه عبارة المنعطف اللغوي " [3].

وهذا الاتجاه الفلسفي الجديد ـ فلسفة اللغة العادية ـ يقوم على دراسة طبيعة اللغة وطبيعة المعنى عند الإنسان العادي " وأن المعنى ليس ثابتا ولا محددا وعليه يجب تفادي البحث في المعنى المنطقي الصارم [4].

وفي دراستنا لهذا التجديد الفلسفي وجدناه يقوم على مبادئ أساسية أهمها :

ـ ضرورة التخلي عن الأسلوب الفلسفي القديم ،وخصوصا الجانب المتافيزيقي .

ـ تحويل الاهتمام الفلسفي من موضوع نظرية المعرفة إلى موضوع التحليل اللغوي .

---

[1] فرانسوا أرمينكو المقاربة التداولية ،ص27.

[2] المصدر نفسه ،ص16.

[3] الزواوي بغورة، الفلسفة واللغة ، نقد المنعطف اللغوي في الفلسفة المعاصرة، دار الطليعة للطباعة والنشر ، بيروت لبنان، ط2005،1،ص ،05.

[4] محمود عكاشة النظرية البراغماتية واللسانية "التداولية "، مكتبة الآداب القاهرة، 2013 ،ص56.

ـ تجديد وتعميق بعض المباحث، كمبحث الدلالة .

ومهما يكن من أمر فإن ما جاء به هؤلاء الفلاسفة لم يكسب مكانته الحقيقية، ولم يرق إلى مستوى النضج والكمال ، إلا بعد مجيئ لفيف آخر من الفلاسفة المنتمين إلى مدرسة أكسفورد (oxford)، في تبنيهم لتراث الفيلسوف (فتيجشتاين) وغيره ، وانكبابهم على تطويره ، وهذا ما يمكن أن نصفه بمرحلة النضج والكمال ، وسنأتي على بيان ذلك لاحقا .

– مرحلة النضج والاكتمال :

لم تصبح التداولية درسا ناضجا وكاملا في مجال الدراسات اللسانية إلا في العقد السابع من القرن العشرين ،وعلى يد بعض فلاسفة اللغة المنتمين إلى مدرسة أكسفورد .

وكانت بداية هذا التطور، بنظرية **أفعال الكلام** باعتبارها من أهم القضايا التداولية، والتي ظهرت مع الفيلسوف اللغوي (ج ،أوستين، (J–Austin)، وطورها فيما بعد فلاسفة آخرون – سيأتي ذكرهم – **إذن** ، ما هو مضمون هذه النظرية باعتبارها مجالا هاما في الدرس التداولي؟

لقد اعتبر (أوستين) الفعل الإنجازي جوهر هذه النظرية ، لذا سميت بالأفعال الإنجازية، لكون الفعل الإنجازي مرتبطا بمقاصد االمتكلمين ، وعلى المتلقي أو السامع أن يفك شيفرة هذا الكلام بغية الوصول إلى المقصود، ومن ثمة حدوث الإنجاز .

وقام اوستين في البداية بإنكار فكرة مفادها حصر وظيفة اللغة في الوصف والإخبار وعزلها عن حال الوقائع في الخارج، ولاحظ أن كثيرا من الجمل لا يمكن أن نحكم عليها بالصدق أوالكذب ....، إنما تغيرها أو تسعى إلى تغييرها " [1].

[1] ألان روبول جاك موشلار ـ التداولية اليوم ، علم جديد في التواصل ، ت ر سيف الدين دغفوس ،ومحمود الشيباني، دار الطليعة بيروت،ط1 ،2003ص30.

وينظر أيضا أوستين ، نظرية أفعال الكلام العامة (كيف ننجز الاشياء بالكلمات)، ترجمة عبد القادر قنيني، افريقيا الشرق ، دط ،1991

مثل جملة آمرك بالصمت، فهي تسعى إلى تغيير حالة الضجيج، ولا تصف حالة لمجرد الوصف ، وقد سماها بالمغالطة الوصفية .

والجملة عند اوستين نوعان :

أ . **جملة يمكن الحكم عليها بالصدق أو الكذب** ، وتسمى بالجمل التقريرية الإثباتية، لأن هذا الفعل الإخباري يتأكد صدقة من خلال مطابقته للواقع* .[1]

ب . **وجملة إنشائية،** وهي أفعال انجازيه لا تصف الواقع ولا يحكم عليها بالصدق أو الكذب ، بل يمكن أن نحكم عليها بالنجاح أو الإخفاق، كأن تقول الأم لابنها : نظف أسنانك ويرد عليها : أنا لا أشعر بالنعاس ، فكلام الأم لا يمكن الحكم عليه بالصدق أو الكذب ، ولكن يمكن القول : أنها أخفقت ،لأن الابن لم يستجب لأمرها، وإن استجاب فالجملة تعد ناجحة . وصفة التوفيق أو النجاح في مثل هذه الجمل مرتبطة بجملة من الشروط ، أهمها :

ـ وجود إجراء عرفي مقبول كالزواج والطلاق .

ـ أن يتضمن الإجراء نطق كلمات محددة من قبل أشخاص معينين في ظروف معينة كأن تقول :أنت طالق ، أو زوجتك ابنتي .

ـ أن يكون الناس مؤهلين لتنفيذ هذا الإجراء .

ـ أن يكون التنفيذ صحيحا ، ويتم بكلمات واضحة ومعروفة .

ـ أن يكون التنفيذ كاملا، فعقد البيع لا يتم إلا من خلال تأكيد كل من البائع والشاري باستعمال العبارات المناسبة (بعتك ، قبلت ...) .

بالإضافة إلى شروط أخرى ، كالصدق في الأفكار والمشاعر، وكذلك الالتزام الفعلي بما يقال

* يقابل هذا في البلاغة العربية، الجملة الخبرية والجملة الإنشائية .

لكن(أوستين) سرعان ما استدرك بأن هناك جملا إنشائية لكنها لا تستند إلى ضمير المتكلم زمن الحال، ولا تتضمن أي فعل إنشائي مثل الجملة: رفعت الجلسة، فظاهرها خبر، لكنها تحمل فعلا إنجازيا، ومنه أخذه تفكيره الى وضع ثلاثة أنواع للفعل اللغوي ، بحيث تشكل كيانا واحدا وهي :

أ.**الفعل القولي (اللفظي) ،(Locutoire)** : يتمل في إنتاج أصوات مفهومة في تركيب إسنادي صحيح في لغة معينة .

ب . **الفعل الإنجازي (القوة)،(Illocutoire)** : وهو المعنى الذي يتحقق عندما نقول شيئا ما كالوعد والتحذير ، والنصح ....

ج . الفعل التأثيري (perlocutoire) : وهو رد الفعل الذي يصدر عن المتلقي أو السامع ، أو الأثر الذي يحدثه الفعل الانجازي في السامعين .

والظاهر من هذا الكلام أن نظرية أفعال الكلام ترتكز في الأساس على النوع الثاني(الفعل الإنجازي).

ويذهب أوستين أكثر من هذا في تصنيفه لأفعال الكلام، فهي عنده خمسة أصناف وهي :

أــ الحكميات (verdicatives) : وهي أفعال لغوية تعبر عن أحكام على واقع معين (قدر ، حكم ، قيم ...) .

ب ـ **الامريات** : (exercitives) :وهي أفعال دالة على الممارسة وتعبر عن اتخاذ قرار (عين ، نصح حذر ، نهي ...) .

ج . **الوعديات (commissives)** : وهي أفعال تدل على الالتزام والتعهد بفعل شيء مثل: (وعد ، التزم ، اقسم ، راهن ...).

د . السلوكيات (condictives) : وهي أفعال تدل على إظهار سلوكات ومشاعر تجاه الأخر (شعر ، هنأ ، لعن ، شكر ..) .[1]

هـ . الإيضاحيات (expositives) : وهي أفعال تستعمل في المناقشة والدفاع عن وجهة نظر أو رد فكرة ، (اعترف ، افترض، شرح ، أجاب ، أثبت)

الخلاصة مما سبق، أن التفكير الأوستيني ركز بشكل دقيق على المقصود من القول، فحين نلفظ بكلام ما فإنني أنجز فعلا معينا و " إقراره بأن كل قول (enonce) عبارة عن عمل"[2] .

وبالرغم من هذه الشروحات الوافية حول نظرية أفعال الكلام تبقى الحدود غير واضحة بين الأفعال الإخبارية ، والأفعال الإنشائية ، فعندما نقول : أنا عطشان، فظاهر الجملة أنها إخبارية لكنها تؤدي وظيفة إنشائية وهو الطلب بمعنى : ناولني كوب ماء .

ولهذا بقي النقاش حول هذه النظرية مفتوحا ، ووسع فيه مجموعة من الباحثين فيما بعد ، أمثال (جون سيرل) . الذي استفاد كثيرا من دروس أستاذه السابق (أوستين)، حيث أكمل مباحثه وأفكاره ، وتوسع في شرحها مركزا على الفعل الإنجازي باعتباره محوريا في نظرية أفعال الكلام، وذلك :" بتقديمه شروط انجاز كل فعل إلى جانب بيانه شروط تحول فعل من حال إلى حال أخرى ...."[3] .

---

[1] دلاش ، ص 25، و خليفة بوجادي ، ص79/78.

[2] دلاش ....ص.22.

[3] فرانسواز إرمينيكو ،المقاربة التداولية ،ص66.

فالباحث (ج ، سورل) لم يكتف بتبني اقتراحات أوستين فيما ذهب إليه ، ولكنه "اقترح بعض التعديلات وطور نظرية الأفعال اللغوية "[1] ، وينحصر جهده تقريبا في إعادة تصنيف نظرية أفعال الكلام ، وراح يميز بين أربعة أقسام هي على الشكل التالي :

أ ـ **الفعل اللغوي (التلفظ)** : الصوت والتركيب ، كما فعل أوستين من قبل .

ب ـ الفعل الانجازي : على نحو أوستين .

ج. الفعل التأثيري : على نحو أوستين .

دـ الفعل القضوي (فعل الإسناد) ، وهذا ما لم نجده عند اوستين ، مفاده : أنه يقتضي أن يكون الفعل في المستقبل، كفعل الوعد فهو يقتضي من قائله إنجازه في المستقبل بشرط توفر عنصري القدرة والإخلاص .

ومجمل نظرته في تصنيف أفعال الكلام انه لم يخرج على طريقة أستاذه (أوستين)، بل تميز عليه بما يلي:

أـ الإخباريات (representatives)، وتدعى بالتأكيدات والحكميات ، ويتم فيها وصف الأحوال وتبليغ الأخبار ، وهي تمثيل للواقع على نحو الجمل التالية :

- الأرض مسطحة .
- يوم الرحلة يوم مشمس .

ب ـ التوجيهات(directives): وتسمى الأمريات، ويتم فيها توجيه المخاطب وتحميله على فعل شيء معين نحو، رجاء ناولني كوبا من القهوة .

[1] محمود احمد نخلة ، أفاق جديدة في البحث اللغوي المعاصر،ص 47.

جـ . الإلزاميات : (commissive) : وتسمى أيضا التعهدات ، وهو أن يلتزم المتكلم بفعل شيء في المستقبل ، مثل :

- سأعود إليكم قريبا.
- أوسأزوركم في الغد.

د . التعبيرات: (expressives)أو المعبرات ويتم فيها التعبير عن الموقف النفسي كمقام التهنئة والشكر، التعزية نحو(أنا أسف على التأخر) (وتحياتنا الخالصة) (وعظم الله أجركم).

هـ . الإعلانات : (declaration) أو الأداءات (الانجازات)، وهي أنواع الأفعال التي تغير الحالة عبر التلفظ بها مثل ، الآن أعلن عن افتتاح الجلسة .

ويلخص سورل هذه الوظائف أو الأصناف في جدول[1] :

نوع الفعـــل	العمليـــة	س = التكلـــم ص =الحالـــة
ـ الإعلانات	الكلمات تغيير العالم	س يسبب ص
ـ الممثلات	جعل الكلمات تلائم العالم	س يؤمن ص
ـ المعبرات	جعل الكلمات تلائم العالم	س يشعر ص
ـ الموجهات	جعل العالم يلائم الكلمات	س يشعر ص
ـ الملزمات	جعل العالم يلائم الكلمات	س ينوي ص

كما نجد عند سيرل تقسيما آخر لأفعال الكلام باعتبار إنجازها ، فهي أفعال مباشرة وأفعال غير مباشرة .

[1] جورج يول،التداولية ترجمة قصي العتابي، الدار العربية للعلوم، بيروت ، لبنان ط1 2010،ص91.

أ ـ **الأفعال المباشرة :** وهو المعنى الحاصل مباشرة بين القول و الوظيفة ، نحو قول الأب للابن : تنح من أمام التلفاز، فيحصل في مثل هذه الأقوال تطابق تام بين المعنى الحرفي والمعنى القصدي .

ب . **الأفعال غير المباشرة :** وهي عدم مطابقة البنية (القول) لما يقصده المتكلم(الوظيفة) نحو الجملة الآتية : أنت واقف أمام التلفاز ، فالمعنى الحاصل بطريقة غير مباشرة هو : تنح من أمامي ، وهذه المعاني تحتاج إلى تأويل لفك شيفرتها وإظهار قصدها الإنجازي .

ونجد أيضا أنه وضع جملة من المقاييس لضبط الفعل الإنجازي وضمان نجاحه ، وقد سماها شروط النجاح ، وهي تستند كثيرا إلى قوانين المحادثة التي وضعها الباحث(ب، قرايس) سيأتي توضيح ذلك لاحقا ـ واعتبرها قواعد عامة أهمها :

ـ قاعدة المحتوى القضوي .

ـ قاعدة التقديــم .

ـ قاعدة الإخلاص .

ـ القاعدة الأساسية .

إضافة إلى ما سبق ، أنه قام بتوسيع مفهوم الفعل الانجازي ليشمل العرف الاجتماعي ، ثم جعل بعض الأدلة ، كالتقديم والتأخير ، والنبر ، والتنغيم ، وعلامات الترقيم أدلة على القوة الانجازية [1].

وهذه القواعد التي وضعها هي عرفية يرتبط فيها المتكلم بالعرف الاجتماعي اللغوي .

[1] خليفة بوجادي ، في اللسانيات التداولية ،ص81.

ـ وبعد عرض نظرية كل من(أوستين)، وتلميذه(سورل) جاء بعدهما الباحث ، (بول قرايس) بمحاضراته التي ألقاها عام (1968) وقد طرح فيها نظريته التي مؤداها ، أن الناس في حواراتهم قد يقصدون ما يقولون، وقد يتجاوز قصدهم أكثر مما يقولون وربما يكون ما يقولون نقيضا تماما لما يريدون، وعليه وضع مبدأ في التخاطب ، سماه **مبدأ التعاون**، ويكون بين المرسل والمرسل إليه، وما يميز دراسة (بول قرايس) هو دراسته للفعل اللغوي غيرالمباشر، لأنه أساس حل مشكلة المعنى ، ومن ثمة اقترح مجموعة من القوانين تخص المحادثة، بسط فيها الأسس العامة للحوار ،والتي ينبغي مراعاتها في كل عملية تحادثية، وهي مبادئ فرعية تفرعت عن المبدأ العام (مبدأ التعاون) . وهي كالتالي:

أـ مبدأ الكم : ويجب أن يجعل فيه المتكلم إسهامه في الحوار بالقدر المطلوب دون زيادة أو نقصان.

ب . مبدأ الكيف : لا يجب التلفظ إلا بما هو صحيح ومشفوع بدليل .

ج . مبدأ المناسبة : يجب أن يتناسب الكلام مع الموضوع.

د . مبدأ الطريقة : يجب فيه الوضوح والإيجاز والترتيب في الكلام .

وينعكس توفر هذه المبادئ على نجاعة الحوار واستمراره.

وهذه المبادئ تهدف في جملتها إلى مبتغى واحد يتمثل في ضبط مسار الحوار وتبليغ المقاصد. و الإخلال بأحد هذه القواعد معناه الإخلال بالعملية الحوارية كلها .

ولعل الجدول الذي وضعه "بول غرايس" (1975) فيه توضيح أكثر لهذه القوانين [1].

---

[1] جورج يول ، التداولية ،ص67.

المبدأ التعاوني : اجعل مساهمتك في المحادثة كما يتطلب منها أن تكون في مرحلة ورودها ،وفقا للغرض المقبول أو اتجاه تبادل الحديث الذي تخوضه
المبادئ الثانوية
الكم Quantity
1 ـ اجعل مساهمتك إخبارية بقدر ما يتطلب الأمر (لإغراض التبادل الآنية) 2 ـ لا تجعل مساهمتك إخبارية بقدر يفوق المطلوب .
النوع Quality : حاول أن تجعل مساهمتك من النوع الذي يوسم بالصحة .
1 ـ لا تقل ما تعتقده كذبا 2. ـ لا تقل شيئا لم يعوزه عندك دليل كاف .
العلاقة Relation: كن وثيق الصلة بالموضوع .
الحال Manner :كن واضحا .
1ـ تجنب استبهام التعبير . 2 ـ تجنب الغموض . 3 ـ كن موجزا (تجنب الإطناب غير الضروري). 4ـ كن منتظما .

أفعال الكلام بعد (اوستين و سيرل وقرايس) .

لقد ركزت الدراسات التي جاءت بعد هذين الباحثين على الجانب المباشر و غير المباشر لنظرية أفعال الكلام، "وعرضوا الكثير من قضاياها، لا سيما مفهوم الفعل الإنجازي و شروط قيامه، و مفهوم القوة الإنجازية و وسائل ظهورها في البنية أو إخفاقها..."[1]، ومن هؤلاء اللسانيين الذين قاموا بذلك :

– **ازوالد ديكرو:** في كتابه القول و اللاقول (dire et ne pas dire) ، إذ ذكر فيه نوعا من الأفعال سماها أفعال الرأي (اليقينيات) مثل(فكر، علم، شك...) و هي تقابل أفعال الشك و الرجحان و اليقين في العربية، و نوعا آخر سماه أفعال الحجاج مثل: (برهن، بين، فند..) .

– **ديكرو و ريكاناتي:** و هما باحثان لسانيان اظهرا انتقادا لـ(اوستين) في تقسيمه لأفعال الكلام، و جعلا لها أربعة أقسام ممثلة في:

- الأفعال الإنجازية
- الأفعال الإدراكية.
- أفعال قوة الإنجاز
- أفعال قوة الإدراك.[2]

ـ يورجن هابرماس: قدم هذا الباحث تصنيفا آخر لأفعال الكلام جاءت على النحو التالي:

- التبليغية. (قال، تكلم، ردّ، أعترف...).
- التقريرية ،(أفكر، أكد، شك، شرح...) .
- الممثلة ،(علم، فكر، أخفى، حجب، سكت) .
- الضابطة، (أمر، رفض، وعد، نصح...) .

[1] خليفة بوجادي: اللسانيات التداولية، ص81.

[2] المرجع نفسه: الصفحة نفسها.

- المقولات التداولية، (سلم، شكر، هنأ، راهن، خطب...)[1].

والظاهر من هذه الدراسة أن نظرية أفعال الكلام تعد محور البحث التداولي اللساني المعاصر ، ومع ذلك لم تخل هذه النظرية من بعض الانتقادات منها [2].

ـ إن بعض عناصرها غير واضحة المفهوم .

ـ هناك تداخل في بعض المصطلحات مع غموضها أيضا .

ـ اقتصرت على النتاج اللغوي فقط، ولم تهتم بأنظمة التواصل الأخرى، والإشارات غير اللغوية.

ـ إن ما اقترحه أوستين، و سورل ، وقرايس يعد نموذجا ضيقا لا يسعف في دراسة أية لغة من اللغات في بعدها الكلي .

ـ هذه النظرية لم تتناول كل عناصر الاتصال .

مجالات البحث التداولي:

بالإضافة إلى نظرية أفعال الكلام التي سلف ذكرها نجد :

1- **الإشاريات (deiscis):** عرفها علماؤنا العرب بالمبهمات و قد أشاروا إليها في وقت مبكر في مباحثهم و دراساتهم اللغوية، و تتمثل في أدوات الربط بين الجمل، و بين مجموعة الجمل المشكلة للنص، و لا تتحدد معانيها الا بوجود سياق الحال المرافق لها، و وظيفتها الأساسية هي ربط النص و تماسك عناصره، و هي على أنواع:

- **الإشاريات الشخصية:** و تتمثل في الضمائر الدالة على المتكلم و المخاطب و الغائب، سواء كانت متصلة أم منفصلة (أنا، أنت، هو ...) .

[1] دالاش: مدخل إلى اللسانيات التداولية، ص 27.

[2] محمود عكاشة، النظرية البراغماتية اللسانية (التداولية) ص111،110.

- **الإشاريات الزمنية:** و تتمثل في ظروف الزمان ، لأنه إذا لم يعرف الزمان التبس الأمر على الملتقي ، (الزمن النحوي، والزمن الكوني) .
- **الإشاريات المكانية:** وتمثلها بصورة عامة ظروف المكان، (هنا، تحت، ذاك...).

فمثل هذه الوحدات اللغوية بذاتها تبقى مبهمة، لا تشير إلى أي شيء ، فالناس هم الذين يشيرون، لأن الأساس التداولي الحقيقي يعتمد في تفسيرها على متكلم و سامع و مقام، و لولا شرط التفاعل الحاصل بين هذه العناصر لتعذر فهم أو تفسير عبارة من قبيل،(سأضع هذا هنا).

كما لا يخفى ما للأثر الاجتماعي من تأثير مباشر و قوي في تأويل بعض الإشارات ، كالتي نجدها في الإشارات الشخصية، في مثل خطابات الملوك و الرؤساء **(نحن** رئيس الجمهورية) و (جاء في كلا**مكم)** ، فهي مؤشر على المكانة الاجتماعية و ليس على الحالة الشخصية.

2- **الإفتراض المسبق (presupposition)**: و هي أشياء يفترضها المتكلون، و معترف بها لكن لا يصرح بها، و إنما تشكل خلفية تبليغية ضرورية لضمان نجاح عملية التواصل و استمراره، يقول الباحث جورج يول :" فالافتراض المسبق موجود عند المتكلمين و ليس في الجمل" [1]، على نحو الجملة الآتية:

- كيف حال زوجتك و أولادك؟...

يفترض مسبقا أن لهذا المخاطب زوجة و أولاد، و أن السائل تربطه علاقة قريبة بهذا المتلقي، فهذه الخلفية تمثل قاعدة مشتركة بين المتخاطبين و بها يكون التواصل ناجحا و التخاطب مستمرا.

[1] التداولية: جورج يول، ترجمة قصي العتابي، ص51.

في حين يؤدي غياب الافتراض المسبق إلى سوء التفاهم بين المتخاطبين ، الذي ينجم عنه الإخفاق التبليغي التواصلي، "غالبا ما يكون مرده إلى العجز من حيث الافتقار إلى مجموع الافتراضات..."[1]

و بالعودة إلى المثال السابق، كيف حال زوجتك و أولادك؟ و نفترض إجابة المتلقي كالتالي:

- أنا لا أعرفــــك
- أنا لست متزوجا
- مــن أنت...؟

نستنتج أن الخلفية التواصلية غير مشتركة بين المتخاطبين ، و عليه كان الإخفاق في التواصل.

3-الاستلزام الحواري (l'implication conversationnelle) : يعد الاستلزام الحواري أو التخاطبي من أهم مجالات البحث التداولي، و يعد الباحث (بول قرايس) أول من بحث فيه و مدّ خيوطه الأولى ،وذلك في محاضراته التي ألقاها في جامعة هارفارد سنة 1968[2]، و فحوى نظريته أنه اكتشف أن الناس في حواراتهم قد يقصدون ما يقولون و قد يتجاوز قصدهم أكثر مما يقولون، و قد يكون ربما العكس[3] (قد سبقت الإشارة إلى ذلك) .

فبعض جمل اللغات الطبيعية في بعض المقامات تدل على معنى غير معنى تركيبها اللفظي وأن هناك جملا لا تفهم إلا في سياقها الخارجي، ومنها الجمل الإنشائية التي تدل على معنى غير صريح كقولنا : " يا ليت الشباب يعود يوما، فالمعنى الضمني أو المستلزم حواريا

---

[1] دالاش: مدخل إلى اللسانيات التداولية، ص35.

[2] المرجع السابق، ص 28.

[3] ينظر في ص 19 من هذا البحث.

هو أن قائل العبارة قد تقدم به السن ، ومنه نقول:أن المعنى في التداولية نوعان : معنى حرفي أو صريح ، ومعنى ضمني أو مستلزم[1].

وتبقى الإشارة إلى أن أهم مميزات الاستلزام بوصفه آلية من آليات إنتاج الخطاب، أنه يقدم صريحا لقدرة المتكلم على أن يعني أكثر مما يقول، أي أكثر من العبارة المستعملة . وفي ذلك ضرب من التوسيع اللغوي .

بالإضافة إلى ما سبق هناك قضايا لغوية أخرى أولاها البحث التداولي عناية كبيرة منها:

أ ـ الملفوظية (l'enonciation):

و تمثل الجانب العملي الفعلي للغة، و لا بد من وقوع التواصل في تشكلها لأنه هناك فرق حسب رأي بنفنيست، بين اللغة بوصفها نظاما من الأدلة ، و اللغة بوصفها ممارسة يضطلع بها الفرد على خلاف ما ذهب إليه دوسوسير[2]، وهي تقوم على مفهوم الأداء الفردي للغة دون عزله عن شروط التفاعل الآخرى، والمتكلم فور تكلمه فإنه ينشئ طرفا آخر لكي يتواصل معه ويقاسمه الكفاءة اللغوية .

أ- الحجاج(argumentation) :

و هو دراسة في الآليات و التقنيات البلاغية أو غيرها، التي من شأنها أن تقنع المتلقي و تثير عواطفه، ويظهر في البلاغة الكلاسيكية عند أرسطو "فن الخطابة " ، وفي البلاغة العربية يعتبر ما جاء به الجاحظ في كتابه البيان والتبيين، والسكاكي في كتابه، مفتاح العلوم، والقزويني في كتابه "الإيضاح، من بحوث في فن القول شعرا ونثرا خطابا حجاجيا بامتياز، لأنهم نظروا إلى المتكلم باعتباره محاججا وذكروا الصفات التي تجعله ناجحا ومقنعا كما نظروا في نجاعة الخطاب الحجاجي وما يحدثه في المتلقي من تأثير وإقناع .

---

[1] محمود عكاشة، النظرية البراغماتية اللسانية ،ص87،88 .

[2] خليفة بوجادي، في اللسانيات التداولية، ص83.

ونسوق على سبيل المثال القصة التي ذكرها الجاحظ في كتابه البيان والتبين مفادها : أن شيخا من الأعراب تزوج جارية وطمع أن تلد له غلاما، ولما ولدت له بنتا هجرها ...وذات يوم مرّ بخبائها بعد حول كامل وإذا هي ترقص بنيتها منشدة :

ما لأبــي حمــزة لا يأتينـــا يظل في البيت الذي يلينا

غضبان أن لا نلد البنينـا تا الله ماذاك في أيـــدينـا

وإنمــا نأخــذ ما أعطينـــا

فلما سمع الشيخ الأبيات مر نحوها ونزل بيتهما، وقبل ابنته وقال :ظلمتكما ورب الكعبة[1] .

فهذه الإستراتيجية الخطابية التي عمدت إليها هذه المرأة عندما أنتجت ملفوظا شعريا،استطاعت أن تغير به موقفا، وبالتالي أدت وظيفة حجاجية إقناعية .

و سنأتي على بيان الحجاج و توضيحه بصورة أكثر في الفصل المخصص له .

ج-السياق:(contexte):

إن مقاصد الكلام لا يمكن الوصول إليها إلا بمعرفة الظروف و المقامات و الملابسات المحيطة بها، و مما يراعي في السياق حال المخاطب، بل لا يكون الكلام بليغا إلا إذا طابق مقتضى الحال، و هذا ما تعارف عليه أسلافنا في تعريفهم للبلاغة،" فهي مطابقة الكلام لمقتضى الحال مع فصاحته "[2].

و يشمل السياق المحيط اللساني و من مستخدم اللغة و مواقع مستخدميها، و أنظمة المعايير الاجتماعية و النظم و العادات و التقاليد، وعناصر المقام تشمل موضوع الكلام، وفي أي مناسبة يقال، وفي أي مكان، وأي زمان وكيف يقال، وما الداعي لقوله، وغير ذلك من العناصر التي تؤثر على كيفية إنتاج الخطاب وعلى معانيه والغاية منه، وهذه العناصر لا ينبغي أن يغفل عنها في تفسير النص القرآني كما أشار إليها المفسرون، مثل :

[1] الجاحظ البيان والتبيين ،دار الجيل ، بيروت لبنان ،ج1،ص43.

[2] القزويني ، الإيضاح في علوم البلاغة ،ص 05.

معرفة أسباب النزول ،وأن القرآن يفسر بعضه بعضا ، ودور السنة النبوية في تفسيره [1].

وطبيعة النشاط الاجتماعي المصاحب للكلام الذي يلتقي حوله المشاركون يوازي المناسبة في البلاغة العربية فمقام التهنئة يختلف عن مقام التعزية ، ومقام الشكر يختلف عن مقام الذم الى آخره .

وعليه يمكن القول أن السياق يعد الخلفية الثقافية والبيئة غير اللغوية للنصوص والكلام بصفة عامة، ومعرفة هذه الخلفية يعين على فهم تلك النصوص ويخلق نوعا من التفاعل اللغوي والتبادل الحواري .

ومن اللغويين المحدثين الذين اهتموا بفكرة السياق والمقام، نجد اللساني دي سوسير في قوله :" الكلمة إذا وقعت في سياق ما لا تكسب قيمتها إلا بفضل مقابلتها لما هو سابق، ولما هو لاحق لها أو لكليهما معا[2] .

ثم جاءت بعده المدرسة الاجتماعية الانجليزية بزعامة (فيرث) ، لتؤكد دور السياق في تحديد المعنى وكذلك اللغوي (مالينوفسكي) في حديثه عن الموقف والسياق الثقافي، مؤكدا أنه من الصعب فهم أي رسالة ما لم نعرف التاريخ الثقافي الكامن في عقل المشاركين في الخطاب (المتكلم والسامع)، والكامن في النشاط الذي يمارسونه"[3] .

ومن المهتمين بفكرة السياق أمثال : ديل هايمز، براون وبول، ديبوغراند، وهاليداي ورقية حسن .

---

[1] ينظر تمام حسن ، اللغة العربية معناها ومبناها ، ص348.

[2] دو سيسير ، علم اللغة العام، ترجمة يوئيل ، دار الكتب للطباعة والنشر، بغداد العراق ،1988،ص186.

[3] عزة شبل محمد،علم لغة النص، النظرية والتطبيق،مكتبة الآداب القاهرة ،ط2 2009 ،ص2،3.

علاقتها بحقول معرفية أخرى .

أ- علاقتها باللسانيات .

إنه من الصعوبة بمكان الفصل بين هذين الدرسين، لأن اللسانيات تشمل على عدد كبير من النظريات و المفاهيم، بما في ذلك التداولية و يظهر هذا بوضوح فيما قدمه الباحث اللساني (نعوم تشومسكي) في دراسته للغة، حيث تمثل الكفاءة عنده دراسة اللغة، و يمثل الأداء الاستخدام الفعلي لها، و دراسة الكلام الذي هو جزء من اللغة أو مظهر من مظاهر تحققها في الواقع، يعد من صميم الدرس التداولي، لكن ما ينبغي توضيحه أن النظريات اللسانية من البنيوية إلى التوليدية تكاد تنحصر دراستها للغة في المستويات المعروفة: الصوتية، الصرفية و التركيبية و الدلالية، في حين أن البعد التداولي يتجاوز ذلك إلى مجالات أخرى مثل الملفوظية و الحجاج و القصدية و الاقتضاء...[1].

والخلاصة من هذا ، أن التداولية جاءت مستدركة ما أهملته اللسانيات قبل مجيء التداولية، و تهتم بالكلام الذي هو غير اللسان في نظر البنيويين، لأن سوسير أخرج الكلام من الدراسة في قوله: "اللغة تختلف عن الكلام في أنها شيء يمكن دراسته بصورة مستقلة..."[2].

ب - علاقتها بالنحو و النحو الوظيفي:

يعتبر النحو من أهم روافد الدرس التداولي ويذهب(سيمون ديك) باقتراحه أن يندرج النحو الوظيفي ضمن نظريات تداولية شاملة تجمع نظريات التواصل اللغوي المختلفة " [3].

---

[1] ينظر خليفة بوجادي: في اللسانيات التداولية، ص:101.

[2] دو سويسر: علم اللغة العام ، ص 33.

[3] أحمد المتوكل، الوظيفة بين الكلية والنمطية، دار الأمان للنشر والتوزيع الرباط ، المغرب،ط1 ،2003،ص56.

فدراسة التراكيب اللغوية (النحو) وما يعتريها من تغيرات على مستوى عناصرها، كالتقديم والحذف والتقدير والزيادة ، ودلالة الأزمنة كدلالة الماضي على المستقبل أو العكس والتعريف والتنكير، هي من اهتمامات التداولية ، فالمتكلم عندما يختار إستراتيجية خطابية دون أخرى يروم في ذلك إفادات ومقاصد إبلاغية مخصوصة ضمانا لنجاعة التواصل ،" فقد يلجأ المتكلم إلى تغيير مواقع عناصر التركيب لأغراض وغايات تداولية يريد تحقيقها بالإضافة إلى أنه يسعى إلى جعل خطابه يستجيب لحال مخاطبه لتحقيق التفاعل والانسجام "[1].

فأسلوب التأكيد مثلا ، Afirmation هو فعل كلامي من وجهة نظرة التداولية وليس مجرد وظيفة نحوية محدودة ، وكذلك اهتمام النحاة بأسلوب الفعل المقدر في أسلوب الاختصاص والإغراء والتحذير يعد فعلا كلاميا هو الآخر.

والنحاة العرب القدامى كانوا يتعاملون مع مسائل النحو أو شواهده باعتبار العلاقة بين المتكلم والمخاطب فيقول سيبويه: وأعلم أن" رويد " تلحقها الكاف وذلك في قولك: رويدك زيدا، ورويدكم زيدا، وهذه الكاف التي لحقت "رويدا" إنما لحقت لتبين المخاطب المخصوص ، لأن رويد تقع للواحد، والجمع، والذكر والأنثى، فإنما أدخل الكاف حيث خاف التباس من يعني بمن لا يعني[2].

إن التوجيهات النحوية للظواهر اللغوية قامت لخدمة المخاطب في محاولة لإنجاح التواصل الإبلاغي بين طرفي الخطاب، ومثل هذه الإشارات التداولية كثيرة ومتنوعة في الممارسة النحوية .

---

1 م صحراوي ، التداولية عند العلماء العرب ،ص202.

2 سبويه، الكتاب، ت–عبد السلام هارون، دار الجيل بيروت، ط1 (د،ت)،ج1 ص: 244.

ج- علاقتها بعلم الدلالة:

تبحث كل من الدلالة والتداولية في دراستهما للغة عن المعنى، وهناك من جعل الدرس التداولي امتدادا للدرس الدلالي ، مثل الباحث (لاترافارس)، فإن كان اهتمام الدلالة بتفسير المعنى الحرفي للملفوظات، فإن التداولية تتجاوز ذلك إلى ربط المعنى بمقاصد المتكلمين في المقامات المناسبة، ويتضح لنا هذا بصورة أكثر في المثال الموالي: في هذا المكان حياتٌ سامة إذ تقوم الدلالة هنا بالبحث في معنى الكلمات ، وهل هي صادقة أم كاذبة لا غير، إلا أن التداولية تتجاوز هذا و تبحث في شروط نجاح التفاعل والتواصل بين المتخاطبين وتحاول الربط بين السياق والأداء ، فالملفوظ السابق في نظر التداولية هو تحذير المخاطب من خطر الحيات وفي حديث الباحث جيوفري ليتش (J.Leitch) عن اتجاهات التداولية في كتابه " مبادئ التداولية "[1]، نجده يعرض وجهات نظر مختلفة حول الدلالة والتداولية:

فالاتجاه الدلالي ، حسب رأيه يجعل التداولية أخص والدلالة أعم، والعلاقة بينهما هي علاقة الجزء بالكل، أما الاتجاه التداولي، هو نقيض الاتجاه الأول إذ يجعل الدلالة جزءا من التداولية .

علاقتها بعلم النفس وعلم الاجتماع :

إن دراسة قوة الذكاء والذاكرة وسرعة البديهة وقياس حدة الانتباه ، من مباحث علم النفس وبالخصوص السلوكي المعرفي، وهذه المباحث أو المفاهيم نستعين بها في فهم الملفوظات، وماذا يعنيه الناس بكلامهم، فهذا العلم يستند كثيرا إلى اللغة في تحليله لمختلف السلوكات التي يبديها الناس ، لأنه من خلال القول نعرف اللامقول .

[1] إدريس مقبول، الأسس الإبستيمولوجية والتداولية للنظر النحوي عند سبويه جدار للكتاب العالمي، عالم الكتب الحديث، الأردن، ط1(2007) ،ص 267.

أما اللسانيات الاجتماعية، وعلاقتها بالتداولية فيظهر "في بيان أثر العلاقات الاجتماعية بين المشاركين في الحديث وبيان مراتبهم وأجناسهم "[1].

فالحديث مع الطفل الصغير ليس هو نفسه الحديث مع الكبير، والحديث مع المثقف يختلف عنه مع الجاهل والأمي ، **فلكل مقام مقال**، ولا ننسى أن اللغة مؤسسة اجتماعية، ولا أحد ينكر أن اللسانيات الاجتماعية " قد عنيت أولا بمشكل اللغة بوصفها وضعا يناسب طبقات اجتماعية واقترحت توسيع حقلها "[2].

هـ ـ علاقتها بالتعليمية :

يعد المتعلم في المناهج التعليمية الحديثة محور العملية التعلمية، وعليه نال الحظ الأكبر من الاهتمام، فراحت كثير من المناهج مثل التداولية ،" تزودهم بالأدوات التي تمكنهم من التحرك بواسطة الكلام تحركا يلائم المقام والمقاصد المراد تحقيقها "[3] ، ومن المؤكد الآن أن التعليم بصفة عامة، وتعليم اللغات على الخصوص، لم يقم على البنى اللغوية وحدها، إذ لا بد من الممارسة الميدانية للغة، ولا يتم هذا إلا بحضور العناصر المشكلة للتواصل ، من متكلم وسامع وخطاب معين يجب تداوله في سياق محدد.

ويظهر البعد التداولي بصورة واضحة في مجال التعليمية في عملية بناء الاختبارات ومراقبة المعلومات ونمذجة التمارين من أجل بلوغ غاية ،" التبليغ الأمثل والأحسن ومن ثم الحصول على فعالية اجتماعية أكبر "[4].

---

[1] خليفة بوجادي، في اللسانيات التداولية ،ص106.

[2] دلاش . مدخل إلى اللسانيات التداولية : ص46،45.

[3] دلاش ، مدخل إلى اللسانيات التداولية، ص46.

[4] المصدر نفسه . ص50.

وفي مجال تعليم اللغات نجد التداولية تنتقد طرق تدريس اللغات الأجنبية التي تتعامل مع لغات مثالية وأناس مثاليين . بعيدا عن أي سياق اجتماعي "[1].

علاقتها بعلم البلاغة :

من أهم مهام تضطلع به البلاغة هو الإيضاح والإبلاغ ، كما أنها تسعى إلى التأثير في الآخر وإقناعه، يؤكد هذا قول أبي هلال العسكري عنها : " تنهي المعنى إلى قلب السامع فيفهمه "[2].

فالبلاغة تنطلق أولا من المتكلم باعتباره منتجا للكلام ، فتبدأ بتحديد الشروط التي يجب توافرها فيه حتى يكون بليغا ثم تعنى بالرسالة (الخطاب)، فتضع لها شروطا كي تصير خطابا ناجحا يختلف عن خطاب السوقة وخطاب العامة ، وتهتم أيضا بحال السامعين وأقدارهم ومنازلهم، لأن الخطاب ينشأ من أجلهم ، فهذه العناصر البلاغية تشكل مجالا مشتركا بين الدرس البلاغي والدرس التداولي، بل هناك من الباحثين من يسوي بين البلاغة والتداولية ، مثل الباحث جيفري ليتش(J–LEITCH) ،" حيث يرى أن البلاغة تداولية في صميمها إذ أنها ممارسة الاتصال بين المتكلم والسامع " [3].

فهي ـ إذاـ تعد بعثا جديدا للدرس البلاغي القديم وبطريقة منظمة ممنهجة، وفي ذلك يقول الباحث صلاح فضل :"ويأتي مفهوم التداولية هذا ليغطي بطريقة منهجية منظمة المساحة التي كان يشار إليها في البلاغة القديمة بعبارة مقتضى الحال "[4].

---

[1] . ينظر خليفة بوجادي،في اللسانيات التداولية ،ص107.

[2] أبو هلال العسكري .الصناعتين..ت حن علي محمد البجاوي ومحمد ابي الفضل، منشورات المكتبة العصرية ،صيدا بيروت 1986، ص.06.

[3] صلاح فضل، بلاغة الخطاب وعلم النص ، الشركة المصرية العالمية للنشر،لونغمان ،ط1 1996، ص31.

[4] المصدر نفسه،ص:26.

– **مهام الدرس التداولي :**

إن إثراء معاني الكلام من أهم ما تضطلع به التداولية وذلك في دراستها للاستعمال اللغوي عوضا عن دراسة اللغة ، فهي تحرر اللغة من حصار التجريد المغلق الذي فرضته النظرة البنيوية السويسرية وقتا طويلا، كما أنها تتجاوز فكرة أحادية وظيفة اللغة والمتمثلة في التواصل إلى إبراز الوظائف اللغوية الأخرى كالوظيفة التأثيرية في سلوك الإنسان [1].

ونجدها أيضا تبين أسباب أفضلية التواصل غير المباشر على التواصل المباشر، وتقوم بشرح كيفية جريان العمليات الاستدلالية في عملية التواصل "[2].

ويكون هذا بإزالة الغموض عن عناصر التواصل اللغوي ، فهي تهتم بالأسئلة الهامة وتحاول الإجابة عن الإشكالات الجوهرية من قبيل الأسئلة التي طرحتها الباحثة فرانسواز أرمنكو ."من يتكلم ؟ وإلى من ؟ وماذا نقول ؟ وكيف نتكلم بشيء ونريد شيئا آخر"[3].

وهذا كله من أجل البحث عن النموذج الأمثل للتواصل .

ونظرا لسعة مجال الدرس التداولي، استطاع أن يمد الدراسات اللغوية والمعرفية الأخرى بعدد من الأفكار والمفاهيم ، فالتداولية – إذا – مشروع شاسع في اللسانيات النصية تهتم بالخطاب ومناحي النصية فيه نحو المحادثة والمحاججة ... بدءا من إنشاء الملفوظ ... إلى ما يمكن أن تنشئه من تأثيرات في السامع وعناصر السياق [4].

[1] ينظر خليفة بوجادي في اللسانيات التداولية، ص،94.

[2] ينظر، مسعود صحراوي، التداولية عند العلماء العرب، ص 28.

[3] فرانسواز ارمينكو، المقاربة التداولية، ص .09.

[4] خليفة بوجادي، في اللسانيات التداولية،ص. 109.

ختاما، يمكن القول : وبكل ما يعتري الإنسان من نقص إننا آتنا على نهاية المبحث الأول بحسب ما سطرناه له في البداية ، ونحسب أنفسنا أننا تتبعنا ـ بإيجاز ـ مسار الدرس التداولي من دون الغوص في جميع التفاصيل ذات الصلة بالجهاز المفاهيمي ، لأنه غني بمفاهيمه وإجراءاته . واكتفينا بإشارات خفيفة نراها تخدم المباحث التطبيقية أكثر، ولأن غايتنا ليست التنظير لهذا الحقل المعرفي، فهو يكاد يقتل بحثا والمراجع في التقعيد له ذوات العدد، بل غايتنا أن نتوسل هذا المنهج المعرفي لغاية أخرى وهي البحث عن هذه المفاهيم الإجرائية التي اعتمدها كثير من علمائنا القدامى ونحاتنا وبلاغيينا وبالخصوص المدونة المعدة للبحث، وهي كتاب الإيضاح في علوم البلاغة .

الفصل الثاني

أبرز المفاهيم التداولية في كتاب الإيضاح.

- **أفعال الكلام وثنائية الخبر والإنشاء .**
- **عناصر التداولية في الخطاب(عناصر الخطاب).**
- **متضمنات القول .**
- **قوانين الخطاب :**
- **القصدية في الخطاب .**
- **عنصر السياق (المقام).**
- **الإشاريات.**

1. أفعال الكلام وثنائية الخبر والإنشاء .

ا- أفعال الكلام في التراث العربي:

يمكن إدراج أفعال الكلام في تراثنا العربي البلاغي ضمن مباحث علم المعاني، وتحديدا في باب الخبر والإنشاء، كما أشار إلى ذلك الكثير من الباحثين المحدثين، أمثال الباحث مسعود صحراوي، إذ يقول : "وتندرج ظاهرة الأفعال الكلامية تحديدا ضمن الظاهرة الأسلوبية المعنونة بالخبر والإنشاء، وما يتعلق بها من قضايا وفروع وتطبيقات، ولذلك تعتبر نظرية الخبر والإنشاء عند العرب من الجانب المعرفي العام مكافئة لمفهوم الأفعال الكلامية.." [1]. ولا نجانب الصواب إذا قلنا إن هذه النظرية أسالت الكثير من الحبر وشكلت بابا مهما عند العلماء العرب على مختلف تخصصهم، كعلماء اللغة والبلاغة وعلماء الأصول وغيرهم، ولا عجب أن نجد عند الأصوليين اهتماما كبيرا بالإنشاء ، وبالخصوص الأمر والنهي، إذ بهما مدار التكليف ، وبهما يترتب الحكم الشرعي، كان هذا قبل أن تستقطب هذه النظرية اهتمام الدارسين المحدثين أمثال ، (ج. أوستين) و(ج .سورل) و(ب.قرايس) بقرون كثيرة.

وعن جذور هذه النظرية في تراثنا يقول الباحث أحمد المتوكل:" من المعلوم أن الفكر اللغوي العربي القديم يتضمن ثنائية (الخبر والإنشاء) التي تشبه إلى حد بعيد الثنائية الأوستينية (الوصف/ الإنجاز)، كما يدل على ذلك تعريف القدماء للخبر والإنشاء..."[2].

---

[1]. مسود صحراوي ،أفعال الكلام ،ص74.

[2]. أحمد المتوكل صحراوي ،أفعال الكلام ،ص74.

[2]. أحمد المتوكل ، اللسانيات الوظيفية .(مدخل نظري)ص:37.

بالإضافة إلى حديثهم عن الأغراض المستفادة من هذه الأساليب البلاغية، كانت خبرا أم إنشاء وخروجهما عن معناهما الحقيقي القضوي إلى معان ضمنية مستلزمة، كما فصلوا أيضا في مواضع التداخل بينهما ، فقد يقع الخبر موقع الإنشاء، على نحو ما ورد عن ابن القيم في كتاب (البدائع): " ومجيء الخبر بمعنى الأمر في القرآن في نحو قوله :"وَالْوَالِدَاتُ يُرْضِعْنَ" (البقرة 233)، "وَالْمُطَلَّقَاتُ يَتَرَبَّصْنَ" (البقرة ، 128) أي: ليرضعن ويتربصن [1]. " فقد صرفت الأفعال من الخبر إلى الأمر، وقد يكون العكس أي من صيغة الأمر ومعناه معنى الخبر كما في الحديث النبوي ،" إذا لم تستح فاصنع ما شئت " ، (رواه البخاري في صحيحه) أي من كان لا يستحي فإنه يصنع ما يشتهي، ويرى ابن القيم أن الفعل جاء على هذا المعنى لفائدة بديعة ...، فإن هذا صورته صورة الأمر ومعناه معنى الخبر المحض "[2].

ومن علمائنا الذين اهتموا بهذه النظرية أبو يعقوب السكاكي، مصطلحا عليها " قانون الخبر والإنشاء، جاعلا لكل منها مرجعية معينة "[3]، وتتمثل هذه المرجعية في علاقتها بالخارج من عدمها، وقريب من هذه الإشارة كلام القزويني : "الكلام إما خبر أو إنشاء لأنه إما أن يكون لنسبته خارج تطابقه أو لا تطابقه..."[4]، إلى آخر ذلك من الإشارات والشروحات المستفيضة في هذا الحقل، وهي تؤشرعلى عمق وامتداد النظريات اللسانية الحديثة في فكرنا اللغوي والأصولي في القديم ، وبالخصوص نظرية أفعال الكلام التي اشتغل بالبحث فيها كل من الفلاسفة والأصوليين والنحاة والبلاغيين .

---

[1] البدائع .ابن القيم .ج1، ص104.

[2] البدائع ابن القيم .ج1.ص 104.

[3] السكاكي.مفتاح العلوم . ص : 254.

[4] الإيضاح: ص:15 . ص02.

ب . أفعال الكلام وأسلوب الخبر :

يعرف الخبر على أنه الكلام التام المفيد، أو الخطاب التواصلي الذي يقبل الصدق أو الكذب، والمرجعية في ذلك، هو مطابقة نسبته مع الخارج أو عدم مطابقته، وتناول الخطيب القزويني للجملة الخبرية يظهر عند حديثه عن الإسناد بصفة عامة، فبدأ بعرض مفهوم الخبرية، ومرجعها في احتمال الصدق والكذب بالنسبة للخارج، ثم عرض لمرجع الخبر كونه مفيدا أم غير مفيد بالنسبة للمخاطب بقوله: " من المعلوم لكل عاقل أن قصد الخبر بخبره إفادة المخاطب، إما نفس الحكم كقولك: زيد قائم، لمن لا يعلم أنه قائم، ويسمى هذا فائدة الخبر، وإما كون المخبر عالما بالحكم كقولك لمن زيد عنده ولا يعلم أنك تعلم ذلك : زيد عندك، ويسمى هذا لازم فائدة الخبر.."[1]، لينتقل بعدها إلى الحديث عن دور المتكلم في عملية الإسناد ، " لأن إسناد الكلمة بشيء يحصل بقصد المتكلم دون واضع اللغة"[2].

ومن المباحث التي تناولها في هذا الحقل، حديثه عن أحوال الإسناد الخبري وأحوال المسند والمسند إليه ، وما تعلق بهما في حالاتهما المختلفة في أغراض الحذف والذكر، والتعريف والتنكير، والتقديم والتأخير ، وفي أسلوب القصر، وكذلك في أحوال متعلقات الفعل وما إلى ذلك ، – وسنأتي على تفصيل هذه البنيات الأسلوبيةلاحقا – وكان تعويل القزويني في ذلك على نصوص كثيرة ومتنوعة يمكن الاعتداد بها تداوليا في اللسانيات المعاصرة.

---

[1] الإيضاح ، ص: 22.

[2] الإيضاح ، ص 29.

ومن بين ما تم تناوله في كتاب الايضاح حول قانون الخبر، دراسة التراكيب اللغوية الخبرية المتفاوتة ضمن ما يسمى "**بأضرب الخبر**"، وهي إشارة تكشف عن مظاهر تداولية مهمة، حيث يتم التمييز بين هذه الأضرب بمراعاة جملة من العناصر نحو قصد المتكلم، وحال السامع والظروف المحيطة به (السياق).

وأما عن انحصار الخبر – بالنسبة لمرجعيته – في ثنائية الصدق والكذب، يرى القزويني أن الأمر مختلف فيه، حيث يرى الجمهور إنه منحصر فيهما وعليه التعويل، ثم ظهر الاختلاف فرأى الأغلبية أن صدقه مطابقة حكمه للواقع، وأن كذبه عدم مطابقة حكمه للواقع، وأن كذبه عدم مطابقة حكمه لاعتقاد المخبر صوابا كان أو خطأ، وكذبه عدم مطابقة حكمه له ..."[1].

وفي توضيحه لهذا الرأي أورد لنا حجتين :

أ . **الأولـــى** : أنه من اعتقد أمرا وأخبر به، ثم ظهر خبره بخلاف الواقع، يقال ما كذب ولكنه أخطأ مستدلا برواية عائشة رضي الله عنها، حيث قالت فيمن شأنه كذلك : ما كذب ولكنه وهم.

ب . **الثانية** : قوله تعالى: ﴿**وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَكَاذِبُونَ**﴾(المنافقون الآية 1)، فكذبهم في قولهم:"**إنك لرسول الله**" وإن كان مطابقا للواقع، لأنهم لم يعتقدوه، فالتكذيب فيقولهم: نشهد

[1] الإيضاح .ص: 10.

وادعائهم فيه المواطأة، لا في قولهم : "**إنك لرسول الله**"[1]، مستدلا في هذا برأي الجاحظ الذي يرفض انحصار الخبر في القسمين السابقين : (صدق وكذب)، وزعم أنه ثلاثة أقسام : صادق ، وكاذب ، وغير صادق ولا كاذب.

فالصادق عندهم هو مطابقة الحكم للواقع مع اعتقاده، والكذب عدم مطابقته، وغيرهما ضربان: مطابق مع عدم اعتقاده، وعدم مطابقته مع عدم اعتقاده، وعن هذه المطابقة نجده يقدم لنا أربعة اتجاهات مصحوبة بأمثلة توضيحية :

أ ـ ما يطابق الواقع واعتقاده، نحو : أنبت الله البقـــل .

ب ـ ما يطابق الواقع دون اعتقاده، نحو : خالق الأفعال كلها هو الله .

ج ـ ما يطابق الاعتقاد دون الواقع نحو : شفي الطبيب المريض.

د ـ ما لا يطابق شيئا منه، نحو ، الأقوال الكاذبة التي يكون قائلها عالما بحالها دون المخاطب.."[2].

هذا كلام القزويني عن الخبر الذي أدرجه فلاسفة اللغة المعاصرين ضمن التقريريات، لأن الغرض المتضمن في القول هو التقرير، ونجد عند الفيلسوف (ج .سورل) حديثا عن الخبر واتجاهاته في المطابقة يشبه إلى حد بعيد ما نادى به القزويني من قبل، وهذه الاتجاهات عند (سورل) هي كالتالي:

---

[1] الإيضاح . ص :11.

[2] الإيضاح .ص :16.

ـ من اللغة إلى العالم .

ـ من العالم إلى اللغة.

ـ المـزدوج .

ـ الفـارغ.

إذن، فمعيار التقسيم بين الخبر والإنشاء عند هؤلاء العلماء جميعهم قديما وحديثا هو فكرة قبول الصدق والكذب، وذلك بحسب مطابقتهما للنسبة الخارجية، والسؤال الذي يطرح نفسه هنا هو، كيف يمكنا الاعتداد بهذه المطابقة في الكلام تداوليا؟ ، بمعنى آخر ما هو الوجه التداولي الذي نتوصل إليه من خلال الحديث عن مطابقة الخبر مع الواقع أو عدمها ؟

لكي نجيب نقول : نتوصل إلى معرفة مدى مطابقة الكلام للواقع من غير ذلك، باعتبار قصود المتكلمين، وكذلك بمراعاة أحوالهم المحيطة بهم، فالعبارة من قبيل "**إنك لرسول الله** " التي سبق ذكرها، إذا نطق بها المؤمن فهي صادقة وإن نطق بها الكافر فهي كاذبة، وذلك بالنظر إلى اعتقاد المتكلم، ولفهم العبارة جيدا لا بد من النظر إلى ما قبلها وما بعدها من التراكيب المحيطة بها، وهو ما يسمى بالسياق المقالي، كالنظر إلى لفظة " **نشهد** " في التركيب العام، فهي قرينة لغوية تعين على معرفة اعتقاد المتكلم والمتمثل هنا في التكذيب ، وبهذا نكون قد نظرنا إلى الجملة باعتبار عنصرين مهمين من العناصر التداولية وهما : القصد والسياق، (وسيأتي بيانهما لاحقا في دراسة مستقلة بهما).

وبالعودة إلى الحديث عن الإسناد الخبري بشقيه: المسند والمسند إليه، وفي حالاتهما المختلفة تستوقفنا شواهد عديدة ذات منحى تداولي بالأساس، كالمثال الذي ساقه القزويني في باب حذف المسند إليه ، وهو قول الشاعر :

قال لي كيف أنت ؟ قلت :عليل

سهر دائم وحزن طويل .

فبقراءة بلاغية أولية لهذا البيت، نجد فيه تعدد صيغ الجواب ممثلة في(عليل، سهر حزن) ، وكذلك تعدد الأوصاف (دائم، طويل) وذلك لأن الشاعر في مقام الكشف عن حالته السيئة، إضافة إلى أنه قدم لنا الخبر مدعوما ببنية الحذف، حذف المسند إليه والمقدر بـ (أنا) و(حالي)، ليصبح الكلام أنا عليل، وحالي سهر دائم، والغرض من حذف المسند إليه(أنا وحالي) المقدرين ، انسجاما مع موضوع الخطاب الذي يفسره السؤال عن الحال في البداية، وتمثله القرينة اللغوية، كيف أنت ؟ ، والغرض من البيت بتعبير البلاغيين القدامى هو إظهار الحالة السيئة للمتكلم .

ـ أما إذا أردنا أن نحلل الخطاب (البيت) ،من منظور تداولي، ووفق نظرية أفعال الكلام، كما يراها التداوليون المعاصرون أمثال (أوستين) و(سورل) ، فيكون كالتالي :

ـ فعل القول البيت الشعري ـــــــــــــــ يمثله ←(اللفظ والتركيب) .

ـ الفعل الإنجازي ـــــــــــــــ يمثله ←إظهار الحالة السيئة .

ـ الفعل التأثيري ـــــــــــــــ يمثله ← محاولة إقناع المخاطب بالحالة السيئة التي آل إليها .

وهكذا يمكن سحب جميع الشواهد التي قدمها القزويني في باب الخبر ومتعلقاته على هذا المنوال من التحليل، والشيء اللافت للانتباه أن تلك الشواهد المعتمدة في الكتاب لا يخلو أحدها من ذكر الغرض المستفاد منها، والمعبر عنه بلفظ **القصدية** لدى التداوليين المعاصرين، إضافة إلى أن هذه الأغراض تحمل قوة إنجازية (الأداء) ، بتعبير كل من الباحثين : أوستين وسورل.

– الخبر وقوة التأثير :

يمكن أن ننظر إلى الأسلوب الخبري من حيث قوته وشدة تأثيره ، وذلك من زاوية وجود التشابه الكبير في الأغراض بين كثير من الجمل، وإختلافها في قوة التأثير ودرجة الشدة، وبالتالي تفاوتها في الإنجاز، ويمكن أن يحصل هذا بمجرد تغيير ـ ولو طفيف في اللفظ إذ يصحبه تغيير في المعنى، باعتبار أن للكلام معنى قضويا محتوى في ظاهرة اللفظ ومعنى إنجازيا خاضعا لقصد المتكلم، وحال السامع ومقامه، ويقابل هذا عند القزويني ما يسمى "**بأضرب الخبر**" الذي نكتشفه من القصة المشهورة بين أبي العباس (المبرد) ، والفيلسوف الكندي ، إذ قال الكندي:" إني لأجد في كلام العرب حشوا، فقال له العباس : في أي موضع وجدت ذلك ؟، فقال أجد العرب يقولون :إن عبد الله قائم، ثم يقولون:إن عبد الله قائم، ثم يقولون: إن عبد الله لقائم ، فالألفاظ متكررة والمعنى واحد، فقال له أبو العباس: بل المعاني مختلفة لاختلاف الألفاظ، فقولهم :" **عبد الله قائم** " إخبار عن

قيامه، وقولهم :"**إن عبد الله قائم**" جواب عن سؤال سائل وقولهم: "**إن عبد الله لقائم** " جواب عن إنكار منكر قيامه"[1].

كما أنهم أطلقوا على تلك الخطابات المختلفة ضروبا : ضرب ابتدائي وضرب طلبي والآخر إنكاري، وهذه الأضرب تطلق بالنظر إلى حال المخاطب، إذا كان خالي الذهن من الحكم أو شاكا فيه أو مترددا في قبوله.

ومهما يكن من أمر فإن أبا العباس والكندي قد تنبها إلى عناصر مهمة في التخاطب، ويعول عليها كثيرا في إنجاح العملية التواصلية منها ، مراعاة حال السامع (شاك، متردد، منكر)، وكذلك قصد المتكلم الذي يظهر لنا في إرساله ثلاثة خطابات متغيرة، حصل هذا قبل أن يتفطن (سورل) ويدلي بدلوه في هذا المنحى ، الذي وسمه بـ "**درجة الشدة** " . "فقد لاحظ (سورل) أن جملتين قد تتشابهان في الغرض المتضمن في القول، غير أنهما تختلفان في درجة الشدة، ومن ثم تتفاوتان إنجازيا ومثّل لذلك بالفرق بين الجملتين :[2]

أ . أقسم أن بيل سرق المال .

ب . وأظن أن بيل سرق المال .

[1] الإيضاح ..ص :14

[2] مسعود صحراوي، المصدر السابق ص 97.

والتمييز الحاصل بين أضرب الخبر قائم على أساس تداولي، لأنه يستند إلى طبيعة العلاقة بين المتكلم والمخاطب، بحيث يتعين على المخاطب في كل مرة اختيار إستراتيجية خطابية، يكون فيها تعديل مناسب، وذلك بحسب الأحوال والظروف المحيطة بها .

كما يمكن اعتبار أدوات التوكيد المستعملة في الخطابات السابقة وهي : (إن ، اللام) قرائن تداولية تم استخدامها في التواصل الكلامي، وليس من أجل نقل الخبر وتوكيده فحسب، بل وللتدرج فيه، وكأنها سلالم حجاجية تجعل من الذات المتكلمة تتدرج في الاحتجاج بالكلام بحسب درجة المخاطب (يقبل، يشك، ينكر)، وحضور مثل هذا النمط من الحجاج (الحجاج باللغة) يعد إضافة قيمية تداولية لأنها تروم الإقناع والتأثير في المتلقي .

الخلاصة من هذا، أن درجة الشدة التي تحدث عنها سورل هي موجودة بكثرة في أساليبنا البلاغية ، بفعل وفرة هذه الأدوات الدالة عليها، كأدوات التوكيد مثلا.

ج . نظرية أفعال الكلام وأسلوب الإنشاء .

يعرّف الإنشاء على أنه الكلام التام المفيد الذي لا يحتمل الصدق أو الكذب، وذلك بحسب المطابقة للنسبة الخارجية، ويعرف عند التداوليين بالجمل الأدائية، ووردت الإشارة إليه في كتاب الإيضاح بالقول الآتي :"الإنشاء ضربان :طلب وغير طلب، والطلب يستدعي مطلوبا غير حاصل وقت الطلب لامتناع تحصيل الحاصل وهو المقصود..."[1]، وما يتفرع عن

[1] الإيضاح ...ص: 135.

الإنشاء من أنواع فهي عبارة عن ظواهر أسلوبية متنوعة، كالتمني والأمر والاستفهام والنداء وغيرها،و تتحدد إفادتها بحسب السياق الواردة فيه .

وتبرز لنا ظاهرة أفعال الكلام كقيمة تداولية في الجملة الإنشائية بصورة واضحة، عند خروج هذه البنيات الأسلوبية عن معناها الحقيقي لتنفيذ أغراض بلاغية متنوعة ومناسبة للمقام، من ذلك قوله تعالى :" **أَأَنْتَ فَعَلْتَ هَٰذَا بِآلِهَتِنَا يَا إِبْرَاهِيمُ**" (الأنبياء.62) . فالأسلوب هنا هو الاستفهام وغرضه البلاغي هو الإنكار، ويقول القزويني معلقا على هذا : " ما دام أن الفعل قد حصل وهو كسر الأصنام فالاستفهام يخص الفاعل ومنصب عليه، وليس على الإقرار بالفعل لأن الفعل حصل .."[1]. أي: الإنكار الذي حصل على فاعله، وليس على الفعل، ويمكن بسط هذا الخطاب تداوليا فيصبح كالآتي :

فعـــــل القـــــول ←———— صورة الألفاظ والتراكيب .

الفعل المتضمن في القول ←———— يدل عليه الاستفهام كقوة إنجازية .

والفعـــل التأثيـــــري ←———— هو إنكار مثل هذا العمل .

ومن الظواهر الأسلوبية في الإنشاء الطلبي والتي يمكن الاعتداد بها تداوليا كالتي نجدها في أسلوب الأمر، وذلك بالنظر إلى عامل الرتبة بين المشاركين في الخطاب، (الآمر والمأمور) في تحديد الإفادات. فقد يفيد الاستعلاء والإلزام، إذا كان الآمر أعلى منزلة منالمأمور، ويفيد الدعاء إذا كان الآمر أقل من المأمور رتبة، أو يكون طلب الفعل على

[1]- الإيضاح ....ص 142.

سبيل التضرع، وأما إذا تساوى فيه الآمر بالمأمور في الرتبة والقيام بالفعل سويا، ففائدته تسمى الالتماس.

هنا ، يمكن القول : إن نمط الإنجاز في أسلوب الأمر يحصل بالنظر إلى علاقة المتكلم بالمخاطب وهذا ما أراده القزويني بقوله : "إنها أعنى صيغة الأمر قد تستعمل في غير طلب الفعل بحسب مناسبة المقام .."[1] ، ويمثله قوله تعالى :"**كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ**" (الأعراف /166). وقوله أيضا : "**فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِنْ مِثْلِهِ** "(البقرة /23)، ففي الآية الأولى خرج الأمر إلى التسخير (التحقير)، وفي الثانية أفاد التهديد والتعجيز، ومثل هذا التحليل نجد له صدى عند التداوليين المعاصرين، فقد أشار (سورل) في تصنيفه للفعل الكلامي (مباشر وغير مباشر)، فالفعل الكلامي المباشر هو كل فعل كلامي صريح في الدلالة على الغرض، أي : المعنى المستفاد من ظاهر اللفظ ، "وتنجز هذه الأفعال بقوة إنجازيه حرفية متضمنة في صيغ الجمل.."[2]. والمكافئ لها في بلاغتنا هو المعنى الحقيقي، أما الفعل الكلامي غير المباشر، هو فعل ناتج عن استعمال الأساليب والعبارات للدلالة على غير ظاهرها، ولها قوة إنجازيه مستلزمة ، وما يقابلها في بلاغتنا هو المجاز أو الغرض البلاغي من الكلام إخبارا أو طلبا، والأمثلة المقدمة في هذا الباب كثيرة ومتنوعة منها

[1] الإيضاح . ص: 84.

[2] آن روبول وجاك موشلار، التداولية اليوم، ص183.

قوله تعالى :"**وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ مَطَرًا**" (النمل/ 58)، فإنه ليس بصدد الإخبار وإنما لبيان نوع المطر العجيب الذي ابتلاهم به، ويقصد به الحجارة[1].

ويقول أيضا في باب الاستفهام : "ثم أن هذه الألفاظ كثيرا ما تستعمل في معان غير الاستفهام بحسب ما يناسب المقام، منها الاستبطاء نحو قوله تعالى : " **حَتَّىٰ يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ مَتَىٰ نَصْرُ اللَّهِ**" (البقرة 214)، ومنها التعجب نحو قوله:" **مَا لِيَ لَا أَرَى الْهُدْهُدَ**" (النمل / 20) [2].

وهذه النظرة في التحليل كانت سائدة عند البلاغيين القدامى جميعهم، فيذهب السكاكي في تعليقه على قوله تعالى : " **هل لي من شفيع**" قائلا : إذا قلت هذا في مقام لا يتسع إمكان التصديق بوجود الشفيع، امتنع إجراء الاستفهام على أصله وولد بمعونة قرائن الأحوال معنى التمني "[3].

والقول نفسه يمكن سحبه على المجاز والكناية، "كلفظة الأسد في الرجل الشجاع "[4]وكقولهم كناية عن الأبله: "عريض الوسادة، فإنه ينتقل من عرض الوسادة إلى عرض القفا، ومنه إلى المقصود "[5].

ولو نظرنا إلى هذه التعابير كما يراها (سورل) لقلنا : الوسادة عريضة، وهو كلام مباشر، وأما صفة " البله" وهي المقصودة تعد كلاما غير مباشر، والتوصل إليه يكون عن

---

[1] الإيضاح : ص 53.

[2] الإيضاح ..ص : 141.

[3] مفتاح العلوم، السكاكي ..ص :146.

[4] الإيضاح ..ص..272.

[5] الإيضاح ..ص .332.

طريق القرائن والأحوال، ووفق شروط معدة سلفا ، لأنه غير ممكن ولايحصل أن تقول لإنسان : أنت أسد ، وتقصد صفة الذكاء، فهذا يعتبر خرقا لأحد الشروط،(كشرط مراعاة المقام هنا)، وهذه الشروط سماه (سورل) باسم "**الشروط المعدة** "[1]،وسماها كل من الباحثين: جوردن ولا يكوف بـ : مسلمات الحوار ومن أشهر هذه الشروط، صدق المتكلم.

ويذهب القزويني– في تحليله – إلى أعمق من هذا ، ويظهر ذلك في تأكيده على التلاؤم القوي بين الإفادة بعدّها بعدا تداوليا ، وبين الإستراتيجية الخطابية المناسبة لها في مقام مناسب لهما ، فيقول : الهمزة لطلب التصديق كقولك : أقام زيد ؟، والمسؤول عنه بها هو ما يليها، فتقول : أضربت زيدا؟، إذا كان الشك في الفعل نفسه، وتقول : أأنت ضربت زيدا ؟ إذا كان الشك في الفاعل من هو ...، وتقول أزيدا ضربت ؟ إذا كان الشك في المفعول من هو ...؟[2].

وهذا التحليل للعلاقات الموجودة بين الكلمات في الجملة أو الخطاب، كان من أجل الوصول إلى المعنى الشامل للعبارة اللغوية، وكذلك حصول التفاعل اللغوي و التواصل البشري، فالجمل السابقة ليست بنية فقط، بل هي بنية ووظيفة، وعليه برزت القدرة التداولية في معرفة هذه الوظائف بحسب السياقات وأحوال المتكلمين، و أما عن اختيار الإستراتيجية الخطابية المناسبة، نجد القزويني يقبح خطابا ويستحسن آخر، وذلك لاعتبارات تداولية خالصة فيقول

[1] الشروط التي وضعها سورل صاغها من مجموعة من القواعد منها القواعد التأسيسية والقواعد الضابطة ، ينظر j, seal .les actes de language, paris 1972– p72

[2] الإيضاح ..ص 136.

عن وظيفة الحرف "**هل**" :" وهل تخصص للمضارع بالاستقبال، فلا يصح أن يقال : هل تضرب زيدا، وهو أخوك ..؟ كما تقول : أتضرب زيدا وهو أخوك ؟ ، أما الثاني فظاهر، وأما الأول فلا، لأن الفعل لا يكون إلا صفة، والتصديق حكم بالثبوت والانتفاء والنفي والإثبات إنما يتوجهان إلى الصفات لا الذوات ،ولهذا كان قوله تعالى :" **فَهَلْ أَنْتُمْ شَاكِرُونَ**" .(الأنبياء 80) أدّل على طلب الشكر من قولنا، فهل " تشكرون "[1]، فحصل بفضل هذه القرائن اللغوية، (هل ، الهمزة) تغير في دلالة الخطاب من معنى إلى معنى، وترتب عليه قبول إستراتيجية دون أخرى، وإن كانت الإستراتيجيتان تبدوان متشابهتين في القوة الإنجازية الحرفية، لكن الاختلاف حاصل في القوة الانجازية المستلزمة، ومن هنا يتضح أن القزويني يحلل الخطاب تحليلا تداوليا، حيث أنه لم يعتمد على الكفاية اللغوية وحدها، بل لا بد من كفاية اختيار الاستراتيجيات الخطابية المناسبة لإنجاح العملية التخاطبية، ويتأكد هذا عند القزويني عندما نجده يقول : " ينبغي للمتكلم أن **يتأنق** في ثلاثة مواضع من كلامه..." ويعني بالتأنق هنا اختيار الكلام المناسب (مراعاة المقام).

[1] الإيضاح ، ص137.

2 . أشكال التداولية في كتاب الايضاح، (عناصر التخاطب) .

أ - الاهتمام بالمتكلم (المرسل).

حظي المتكلم بعناية كبيرة في الدرس البلاغي واللساني، فهو يعد ذاتا محورية في إنتاج الخطابات وتشكيلها، وهو وحده الذي يستطيع أن يعبر عن الدلالات وعن المقاصد، وعبر بنائه للخطابات يكون قد أدخل المعنى في التراكيب اللفظية ، وذلك عن طريق عملية الإسناد الموكلة إليه وحده، فألفاظ اللغة بمفردها هي من اختصاص واضع اللغة ولا دخل للمتكلم فيها، إنما دوره يأتي من خلال إظهار مهاراته أثناء وقوع اللغة بين يديه، أي أثناء استعمالها في عملية التخاطب، وقد تنبه القزويني لذلك مبكرا بقوله: " لأن إسناد الكلمة شيء يحصل بقصد المتكلم دون واضع اللغة، فلا يصير ضرب خبرا عن زيد بواضع اللغة، بل بمن قصد إثبات الضرب فعلا له "[1]. الواضح من هذا الكلام أن مهمة المتكلم تتمثل في نقل اللغة من المستوى الصوري إلى المستوى الاستعمالي، وتم هذا بفضل إنجازه لفعله التلفظي، وعليه يكون قد حقق كفاية تداولية ، لأن الاستعمال اللغوي هو جوهر النظرية التداولية.

ولا يعد المتكلم متكلما إلا إذا أنجز فعلا كلاميا في الواقع، كما نبه إلى ذلك قديما أبو هلال العسكري بقوله: " ... هو فاعل الكلام "[2].

---

[1] الإيضاح، ص 29.

[2] أبو هلال العسكري ، الفروق في اللغة، منشورات الافاق الجديدة ، بيروت ، ط4 (1997) ، ص: 27.

وقد بدأ الاهتمام بالمتكلم في اللسانيات الحديثة ، بعد انتقادات تشومسكي للمنهج البنيوي الصارم، وكذلك اعتراضات فلاسفة اللغة لبعض آراء البنيويين، لأن المنهج البنيوي اختار التمركز في دراسة اللغة على الجانب الوصفي الداخلي، " دون الاعتداد بأي عنصر من عناصر البنية الخارجية بما فيها المتكلم "[1]. والكلام إذا لم يرسل يبقى رهين الذهن وحبيس النفس، مما يستوجب باعثا له، " فبدون المرسل لا يكون للغة فعالية "[2].

وعلى أساس الاعتداد بالمتكلم نجد علماء البلاغة العرب ربطوا مفهوم كل من الفصاحة والبلاغة بالمتكلم، ويمثل هذا قول القزويني: " كل واحد منهما،(البلاغة والفصاحة) تقع صفة لمعنيين:

– أحدهما الكلام (...) سيأتي بيانه لاحقا.

– والثاني المتكلم، كما في قولنا: شاعر فصيح أو بليغ، وكاتب فصيح أو بليغ..."[3]، وتظهر فصاحة المتكلم أكثر في القدرة على التعبير عن المقصود بلفظ فصيح، إذا فهي ملكة مترسخة في ذهنه وقارة فيه، ومتخصصة بالذوات المتكلمة، " فهي ملكة يقتدر بها على التعبير عن المقصود وبلفظ فصيح "[4].

---

[1] خليفة بوجادي، ص: 133.

[2] ابن الظافر الشهري، إستراتيجية الخطاب ص: 45.

[3] الإيضاح، ص: 05.

[4] الإيضاح، ص: 11.

وليس القزويني وحده من تحدث عن دور المتكلم في العملية التخاطبية، فالجاحظ قبله أيضا أشترط في الخطيب أن يكون كثير العلم ومتصرفا في الخبر والأثر..."[1]، والشاعر عند ابن سنان الخفاجي يحتاج إلى معرفة المشهور من أخبار العرب وأحاديثها ، وأنسابها وأمثالها ومنازلها، وسيرها وحروبها. والكاتب عند ابن قتيبة يحتاج إلى معارف عديدة..."[2].

إضافة إلى هذه الكفايات التي يحتاجها المتكلم ، كان خطيبا أو شاعرا أو كاتبا أو عاديا، تلزمه كفايات أخرى مثل ، الإشارة والصوت والنبر واللباس والحركات والنظرات، والمسماة بكفاية الإنجاز.

ومن الشروط الواجب توفرها أيضا في المتكلم هو قدرته على إستشراف نفسية مخاطبه ومراعاة ظروفه وأحواله، ويتم هذا بطرح جملة من الأسئلة قبل البدء في الإنجاز اللغوي، وقد حددها الباحث المغربي أحمد المتوكل بقوله: "... يستطيع مستعمل اللغة أن يدرك العناصر السوسيونفسية التي تصاحب إنتاج الخطاب وتأويله؛ أي يعرف متى يخاطب؟ ومن يخاطب؟ ولماذا يخاطب ذلك في تلك الحال؟ ولأي غرض؟[3].

وبفضل الملكة الراسخة في نفس المتكلم يمكنه أن يعطي لكل موقف (حال) حقه، ويضع كل شيء في مكانه المناسب، فهو " الذي يغوص في أعماق نفس الإنسان الذي يخاطبه، في فهم ما يعتلج فيها ويدور في حناياها، وحينئذ يختار الكلمة المناسبة لهذا الإنسان[4].

---

[1] البيان والتبيين، الجاحظ، ج1، ص: 102.

[2] ابن قتيبة، أدب الكاتب، ص: 16/09.

[3] أحمد المتوكل، قضايا اللغة العربية في اللسانيات الوظيفية، دار الأمان، الرباط، (1995)، ص: 32

[4] بكري شيخ أمين، البلاغة العربية في ثوبها الجديد (علم المعاني)، دار الملايين بيروت ج1، ص: 70.

ب ـ الاهتمام بالمخاطَب (السامع).

لئن كان المرسل هو منتج الخطاب وباعثه، فإن المخاطب أو السامع هو من يرسل إليه الكلام وينشأ من أجله، لذا حظي بأهمية بالغة من قبل الدارسين البلاغيين ، قديما وحديثا باعتباره "مشارك في إنتاج الخطاب مشاركة فعالة وإن لم تكن مباشرة..."[1] وتبرز كفايته التأويلية في أنه لا يستقبل فقط ما يصله من خطاب، وإنما يشارك في بناء فهم مناسب للقول، ويرى محمد محمد يونس أن وظيفة المخاطب في عملية التخاطب: " هي وظيفة التفكيك؛ أي تفكيك الرسالة اللغوية وهو دور إيجابي من حيث كونه مكملا لعملية التركيب التي قام بها المتكلم، وذلك لأنه ليس هناك عملية تخاطب يتم إنجازها دون أن تمر بمرحلتي التركيب والتفكيك"[2].

إذن، فالمخاطب مدعو بأن يستفيد من القصد الذي يريده المتكلم، وإذا كان هذا الأخير ـ المتكلم ـ يبني ويقصد ويرسل فإن المخاطَب عليه أن يستقبل ويفهم ويأوّل.

والمتكلم حين يراعي المقامات والأحوال في إنتاجه للخطاب، يكون قد استحضر المتلقي (السامع) سواء حضورا عينيا أو ذهنيا، " بل إن الخطاب في ذاته يكون في أغلب الحالات حسب ما يريده السامع لا المتكلم، وتلك هي سمة اللسانيات التداولية (...) حيث أن من أهم مجالاتها الاهتمام بالسامع واعتبار المخاطب "[3].

---

[1] خليفة بوجادي، ص: 142.

[2] محمد محمد يونس علي، المعنى في ظلال المعنى، ص: 155.

[3] خليفة بوجادي، ص: 143.

وكما سبقت الإشارة إلى تلك الشروط الواجب توافرها في المتكلم والتي بموجبها تتحقق كفايته التداولية، كذلك هناك جملة من المواصفات والشروط ينبغي أن يتحلى بها السامع (المخاطَب) حتى يؤدي وظيفة الفهم ومنها:

- الاستعداد للتواصل مع الغير.
- عدم الوقوف على ظاهر الخطاب.
- توفر ملكة الذوق وسعة المعرفة، حتى تمكنه من حسن التأويل.
- الرغبة في الاستجابة.

وتدعيما لهذا الكلام نورد كلام الجرجاني، إذ يقول في هذا الباب: " واعلم انه لا يصادف القول موقعا من السامع ولا يجد له قبولا حتى يكون من أهل الذوق والمعرفة، وحتى يكون مما تحثه نفسه لما يومئ إليه من الحسن واللطف وحتى الحال عليه عند تأمل الكلام فيجد الأريحية تارة، ويعرى منها تارة أخرى، أو كان لا يتفقد من أمر النظم إلا الصحة المطلقة، وإلا إعرابا ظاهرا، فما أقل ما يجدي الكلام معه"[1]، ولهذا ينبغي على المتكلم مسبقا، وقبل بناء خطابه أن يطرح سؤالا مفاده، من المخاطب الذي سأتوجه إليه؟ هل هو من العوام أو الخواص؟ هل هو رجل أم امرأة؟ هل هو واقعي أم مفترض؟ إلى غيرها من الأسئلة التي تعينه على فهم متلقيه بغية إقناعه والتأثير فيه ، لأن الخطاب يكون على قدر المستمعين، ومن يحضره من العوام والخواص"[2]، ويذهب الجاحظ أكثر من هذا في وصفه

[1] دلائل الإعجاز، عبد القاهر الجرجاني، ص: 190.

[2] الجاحظ، البيان والتبيين، ج1، ص: 105.

للمتكلم البليغ، فهولا يكلم سيد الأمة بكلام الأمة، ولا الملوك بكلام السوقة"[1]، ومكانة المخاطب التي يجب أن يستحضرها المتكلم هي التي يقصدها البلاغيون قديما بمفهوم (حال المخاطب)، وجعلوا إفادة السامع شرطا أساسيا في استقامة التراكيب والبنى اللغوية، وما نجنيه من عبارة السكاكي المشهورة في تعريفه لعلم المعاني: " هو تتبع خواص تراكيب الكلام في الإفادة "[2] دليل على أن وضوح الكلام وبلاغته متعلق بمدى فهم السامع له، وهناك من علمائنا من ألح على ضرورة الحضور العيني (المادي) للمخاطب، كالذي رواه ابن جني: " وقال لي بعض مشايخنا: أنا لا أحسن أن أكلم إنسانا في الظلمة "[3] .

الآن ، وبعيدا عن التنظير لحال المخاطب، ينبغي طرح السؤال التالي، ما موقع هذا الكلام من كتاب الإيضاح؟، فنقول: إن في بلاغة القزويني ما يؤشر على مكانة المخاطب والاعتداد به أثناء عملية الإنتاج والإنجاز للأبنية الخطابية، ولعل القصة المشهورة لأبي العباس مع الكندي السالفة الذكر، تكشف لنا عن فاعلية المخاطب في التواصل والتي من خلالها نستطيع أن نميز بين ثلاثة مخاطبين:

أ- مخاطب خالي الذهن من الحكم الذي تضمنه الخبر، ويستغني فيه عن المؤكدات كقولك: جاء زيد، فيتمكن في ذهنه.

---

[1] المرج نفسه، ص: 92.

[2] السكاكي، مفتاح العلوم، ص: 161.

[3] ابن جني، الخصائص، تح ، علي النجار ،عالم الكتب بيروت (2006) ، ج1، ص: 217.

ب- مخاطب متردد وشكاك في إسناد طرفي الخبر، طالبا له حسن تقويته بمؤكد كقولك: إن زيدا عارف، ويسمى الخبر عندها خبرا طلبيا، وكأن المخاطب يطلب من المتكلم إنقاذه من حيرته.

ج- مخاطب منكر وجاحد للخبر، فان كان حاكما بخلافه، وجب توكيده بحسب الإنكار فنقول: وإني لصادق لمن يبالغ في الإنكار[1].

الملاحظ في القصة أن فعل القول واحد، ولكن القوة الإنجازية تختلف بسبب تغير موقف السامع وأحواله، فمرة متقبل، ومرة شاك، ومرة منكر، وعليه استوجب تغيير الإستراتيجية الكلامية التي تتناسب معه وتؤثر فيه .

وفي حديث القزويني في باب الإسناد الخبري بمختلف بنياته من الحذف والذكر، التقديم والتأخير، والفصل والوصل والقصر، وكذلك في أسلوب الإنشاء، إنما يعول كثيرا على دور المخاطب في تحديد المقاصد فيقول: " وإما لاختبار تنبه السامع له عند القرينة أو مقدار تنبهه"[2] ، وكذلك في المجاز والكناية والاستعارة، فالمعاني المستلزمة حواريا بتعبير التداوليين، والأغراض بتعبير البلاغيين العرب القدامى، فهي لا تذكر بصورة صريحة، ولكن المخاطب هو من يعول عليه في فك شيفراتها، والوصول إلى المعاني اللاقولية، لأن التواصل الناجح مرهون بالعمليات التأويلية الجارية في أذهان المتخاطبين أثناء التخاطب[3].

---

[1] الإيضاح، ص: 14.

[2] الإيضاح ، ص21.

[3] عمر بلخير، تحليل الخطاب المسرحي في ظل اللنظرية التداولية منشورات الاختلاف ص،39.

ومن أشكال الاهتمام بالمخاطب نجد مايلي:

- التأدب في الكلام مع المخاطب (مبدأ التهذيب).

يتطلب الحفاظ على الاستمرار في التواصل وضمان النجاح في العملية التخاطبية أن يختار المتكلم أو الخطيب إستراتيجية خطابية مناسبة، ويعدل عن أخرى ، وذلك تأدبا مع مخاطبه، وهذه المهارة هي حجاجية بالدرجة الأولى يلجأ إليها المتكلم لاستمالة مخاطبه لحمله على فكرة أو حثه على القيام بفعل أو اتصاف بسلوك معين، ويعرف هذا الاتجاه في الخطاب في درسنا البلاغي القديم بأساليب التأدب في الكلام، " فلو أن أحدهم مثلا قدم له طعاما لا يشتهيه، فهو لا يبلغ ذلك بشكل مباشر إلى مخاطبه، بل يعدل إلى ذكر سبب آخر من الأسباب التي لا تحرج مخاطبه كأن يقول مثلا: أشكو من ألم في المعدة..."[1].

ويكفينا شاهدا في القرآن الكريم على هذا المنحى، خطاب موسى (عليه السلام) لفرعون، قال الله تعالى:﴿**فَقُلْ هَل لَّكَ إِلَى أَن تَزَكَّى وَأَهْدِيَكَ إِلَى رَبِّكَ فَتَخْشَى**﴾[النازعاتالآية 18-19] حيث جاء الطلب بطريقة السؤال والعرض، لا بطريقة الأمر المباشر، ويعد هذا من أدب الحديث، وعندما نقارن بين الخطاب القرآني في هذه الآية، وبين المثال الذي طالما تغنى به كثير من التداوليين المعاصرين والذي مؤداه: **هل لك أن تناولني الملح؟** يتبين لنا وبوضوح من له السبق في الحديث عن مظاهر التداولية، باعتبار أن الخطابين متماثلين في فعل القول والقوة الإنجازية وكذلك في فعل التأثير.

[1] الإيضاح، ص: 337.

وفكرة التأدب في الحديث نجد لها صدى في كتاب الإيضاح ممثلة في قول القزويني نقلا عن الزمخشري: " وقولهم : مثلك لا يبخل، قال الزمخشري: نفوا البخل عن مثله، وهم يريدون نفيه عن ذاته ... فسلكوا به طريق الكناية".[1]

والحقيقة أن الأسلوب الكنائي فيه غنى لمستعمليه عن بعض التعابير المحرجة، ويلجأ إليه المتكلم تساميا في تعبيره ومحترما لمخاطبه، وبهذه القوة الإنجازية المتضمنة في الكلام الكنائي نكون قد حققنا كفاية تداولية أساسها احترام مبدأ التهذيب في الكلام والتفاعل مع المخاطبين.

وعن مبدأ التأدب في الكلام تقول الباحثة(روبين لايكوف) في مقالتها الشهيرة ،" **منطق التأدب** " : "ولتكن متأدبا "[2]، وكذلك ما جاء به الباحث (جورج ليتش) في كتابه **مبادئ في اللسانيات**، من اقتراحات في شكل قواعد مثل، قاعدة اللباقة، قاعدة السخاء، قاعدة الاستحسان، قاعدة التواضع، قاعدة الاتفاق، قاعدة التعاطف[3]، تعد تكملة وتتمة لمبدأ التعاون الذي نادى به (بول قرايس) من قبل، ويضيف إلى هذه الجهود طه عبد الرحمن مبدأ آخر، سماه مبدأ التحقيق واعتبار الصدق والإخلاص[4].

وربما يبدو للوهلة الأولى أن هذه المبادئ أو القواعد تخص المتكلم وحده، ولكنها ضمنيا هي متعلقة بالطرف المتحدث معه (المخاطب)، فمع من نكون متأدبا ؟ ، ومع من نكون متواضعا ولبقا ومتعاونا ومخلصا...؟، لاشك أنه المعني بالخطاب والمرسل له .

---

[1] الإيضاح، ص: 337.

[2] الاستلزام الحواري في التداول اللساني، العياشي أدراوي، ص: 118.

[3] ينظر المرجع نفسه، ص: 122/121.

[4] طه عبد الرحمن، اللسان والميزان، ص: 247.

الخلاصة من هذا، أن هذه المبادئ المشترطة في بنية المحادثة والتي أساسها التهذيب والتأدب في الكلام تضمن تفاعلا لغويا ناجحا، وبالتالي تفاعلا اجتماعيا قويا ولابد أن نشير هنا إلى مسلمة هامة مؤداها، أن كثيرا من العلاقات الاجتماعية تتحدد قيمتها بناء على اللغة المستعملة، وعلى هذا نرى كثير من المتكلمين أثناء العملية التحادثية ينزعون إلى توسيم خطاباتهم بكثير من صيغ المبالغة والإطراء وعبارات التزلف مثل، سيدي الفاضل، جاء في كلامكم، أيدكم الله... إلخ، سيما إذا كان المخاطب ذا مركز اجتماعي هام، ولا نجانب الصواب إذا قلنا أن مبادئ التخاطب التي نادي بها اللسانيون المعاصرون جمعها الخطاب القرآني في قوله تعالى: ﴿**اذْهَبَا إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى فَقُولا لَهُ قَوْلا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى**﴾(طه، الآية: 44-45) ، فالآية الكريمة قد كشفت عن حالة المخاطب (فرعون) ، وأنه في مقام الشدة والعناد، ولا يمكن التواصل معه إلا بإستراتيجية خطابية إيجابية (اللين)، وهذه الصفة الإيجابية هي التي تغير من وضع المتلقي وتعدل من أفكاره.

- بنية الحذف والذكر باعتبار حال السامع:

والحذف في البلاغة العربية معناه " حذف بعض الكلام لدلالة الباقي عليه، "[1] ولقيمته الفنية ، و قد أشار اليه الجرجاني بقوله: " فإنك ترى به ترك الذكر، أفصح من الذكر، والصمت عن الإفادة أزيد للإفادة "[2] فإسقاط بعض الكلام من الخطاب هو تنبيه للسامع لينتبه إليه، وتجده سرعان ما يبدأ في التفكير والاهتمام بالمحذوف، " وأول ما يحصل لديه عظم شأن الخطاب وعلو مكانته "،[3] وهنا تظهر قيمته التداولية ،على خلفية أن المتكلم أثناء عملية إنتاج الخطابات المتضمنة للمحذوفات من دون شك أنه يتمثل في ذهنه أن مخاطبه (المرسل إليه) يعلم بمضمون هذا الخطاب، لأنه لا يحذف شيئا من الكلام ليس بمقدور السامع التوصل إليه، ويكون ذلك بترك القرائن الدالة على المحذوف، وفي هذا يقول القزويني: " وأعلم أن الحذف لابد له من قرينة كوقوع الكلام جوابا عن سؤال، إما محقق كقوله تعالى: ﴿**وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ**﴾ [الزمر، الآية: 38]. أي الله هو الذي خلق السماوات والأرض.

وتظهر بنية الحذف في كتاب الإيضاح في الكلام عن أحوال المسند والمسند إليه، إذ يقول القزويني عن دواعي حذف المسند إليه: " أما حذفه فإما لمجرد الاختصار والاحتراز عن العبث بناء على الظاهر، وإما لذلك مع ضيق المقام...وإما لاختبار تنبيه **السامع** له عند القرينة ...وإما لأن الخبر لا يصلح إلا له حقيقة أو إدعاء وإما لاعتبار آخر مناسب"[4]، فالظاهر من هذا الكلام أن بنية الحذف مرتبطة بالسامع أكثر من غيره.

---

[1] العمدة، ابن رشيق، ج1، ص: 251.

[2] الجرجاني، الإعجاز، ص: 149.

[3] خليفة بوجادي، ص: 149.

[4] الإيضاح، ص: 38.

ودعما لهذا يقدم لنا القزويني مجموعة من الشواهد كالذي نجده في قول الشاعر:

سريع إلى ابن العم يلطم خـــــده

وليس إلى داعي الندى بسريــع

فالمحذوف هنا هو المسند إليه (المبتدأ) ممثلا في الضمير والتقدير(أنت سريع)، وكذلك الضمير المقدر في قوله تعالى: ﴿**صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ**﴾ [البقرة، الآية: 18]، والغاية من حذفه في الاية تحقير شأن هؤلاء ، مكتفيا بذكر صفاتهم القبيحة، وقد يحذف المسند (الخبر) كقول أبي الطيب:

قالت وقد رأت إصفراري : من به؟

وتنهدت فأجبتها: المتنهد

أي المتنهد هو المطالب به"،[1] وذلك لضيق المقام، ومن غير ضيق المقام كقولك: خرجت فإذا زيد؛ أي: زيد موجود[2]، ولو ذكر المحذوف في هذا المثال لكان ذكره عبثا في الظاهر، بمعنى أنه لا تظهر له فائدة.

هذا عن بنية الحذف، أما عن بنية الذكر، فيقول القزويني: " وأما ذكره فإما لأنه الأصل، ولا مقتضى للحذف، وإما للاحتياط لضعف التأويل على القرينة وإما للتنبيه على غباوة **السامع**، وإما لبسط الكلام، حيث الإصغاء مطلوب كقوله تعالى حكاية عن موسى عليه السلام: ﴿**هِيَ عَصَايَ**﴾[طه، الآية: 18]، ثم ربما جعل ذريعة إلى التعريض بالتعظيم لشأن الخبر كقول الفرزدق:

إن الذي سمك السماء بنى لنا بيتا دعائـــمه أعــز وأطـــــول

[1] الإيضاح، ص: 84.

[2] الإيضاح، ص: 85.

وقد يكون لزيادة التقرير نحو قوله تعالى:﴿**وَرَاوَدَتْهُ الَّتِي هُوَ فِي بَيْتِهَا عَن نَّفْسِهِ**﴾(يوسف الآية: 23)، وإما للتفخيم كقوله تعالى:﴿**فَغَشِيَهُم مِّنَ الْيَمِّ مَا غَشِيَهُمْ**﴾(طه، الآية: 78).[1]

والأمثلة كثيرة في هذا الباب وهي تكشف في مجملها عن حال السامع باعتباره المعني بالتأويل لهذه الخطابات وفهمها، فهو الذي يتنبه وهو الذي يحترز وهو الذي يعظم ويحتقر ويصغي ... إلخ.

- **بنية التقديم والتأخير ودور السامع:**

ومعنى التقديم والتأخير أن تحول اللفظ من مكان إلى آخر، وهو أحد الأساليب البلاغية التي شغلت الباحثين كثيرا من لغويين وبلاغيين ومفسرين، لأنه " لا يزال يفتر لك عن بديعة ويفضي بك إلى لطيفة (...) ثم تنظر فتجد سبب أن راقك، ولطف عندك أن قدم فيه شيء وحول اللفظ عن مكان إلى مكان.. "[2]، فتقديم كلمة وتأخير أخرى في جملة يعطي معنى ثانيا ، غير الذي تعطيه الألفاظ، ومن علمائنا الذين اهتموا به وفصلوا القول فيه ، ابن الصانع في كتابه: " المقدمة في سر الألفاظ المقدَمة ".

وتعد هذه البنية البلاغية كباقي البنيات التي لم يغفل عنها القزويني بقوله: " وأما تقديمه فإما لتخصيصه بالمسند إليه، كقوله تعالى: ﴿**لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ**﴾(الكافرون الآية 06)،وفي قوله تعالى:﴿**لا فِيهَا غَوْلٌ وَلا هُمْ عَنْهَا يُنزَفُونَ**﴾ (الصافات الآية 47) ، حيث يفيد تقديم المسند وصف خمور الجنة، بخلاف خمور الدنيا التي تغتال العقول، ولهذا لم يقدم الظرف في قوله تعالى: ﴿**لاَ رَيْبَ فِيهِ**﴾ (البقرة 02)، لئلا يفيد ثبوت الريب في سائر كتب الله تعالى"[3]، ومن لطائف التقديم والتأخير في الكلام وبدائعه وهي ذوات العدد، "أنه كثير

[1] الإيضاح، ص 42-43.

[2] الجرجاني، دلائل الإعجاز، ص: 117.

[3] الإيضاح، ص: 104.

الفوائد، جمال، محاسن، واسع التصرف، بعيد الغاية"،[1] ويذكر لنا القزويني احدى غايات التأخير ممثلة في التشويق إلى ذكر المسند إليه، كقول الشاعر:

ثلاثــة تشـرق الدنيا ببهجتهـا شمس الضحـى وأبو إسحـاق والقمـر

وقول آخر:

وكالنـار الحيـاة فمـن رمــاد أواخـــــرها وأولـهـــا دخـــان

فالتـأخير الحاصــل فــي هـذين الشــاهدين: تـأخير (شـمس الضــحى) فــي البيــت الأول، وتـأخير (الحيـاة) عـن النـار، ولفـظ (الـدخان)عن (أولهـا وآخرهـا) فـي البيـت الثاني ، وذلك من باب التوسعة على الشاعر لنظم كلامه واختيار قوافيه أولا، والتأثير في المتلقي ثانيا.

ثم نراه يقدم لنا أمثلة أخرى في هذا الباب تتعلق بأحوال الفعل ومتعلقاته، إذ يقول: " وأما تقديم مفعوله ونحوه عليه ، فلرد الخطأ في التعيين، كقولك: " زيدا عرفت " لمن يعتقد أنك عرفت إنسانا وأنه غير زيد (...) وكذلك إذا قلت " بزيد مررت "، أفاد أن **سامعك** كان يعتقد بغير زيد فأزلت عنه الخطأ "[2].

وقد يكون غرضه الاحتراز من الوقوع في الإخلال بالمعنى كقوله تعالى: ﴿**وَقَالَ رَجُلٌ مُّؤْمِنٌ مِّنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَانَهُ**﴾[غافر، الآية: 28]، يوضح القزويني هذا الشاهد قائلا: " فإنه لو أخر (من آل فرعون) عن (يكتم إيمانه)، لتوهم أن (من) متعلقة بـ (يكتم)، فلم يفهم أن الرجل من آل فرعون "[3].

[1] دلائل الإعجاز، ص: 117.

[2] الإيضاح، ص: 115.

[3] الإيضاح، ص: 118.

والذي نريد الوصول إليه مما سبق من أقوال القزويني، أنه يمكن اعتبار الغايات والأسرار التي يفيدها هذا الأسلوب منحى تداوليا، لأن القصد الأول من اختيار هذه البنية هو التأثير في المخاطب، وكذلك التعويل على كفاءته في فهم هذه البنية والمقدرة على فك شفراتها.

- بنية القصر وموقف السامع منه:

يعد أسلوب القصر من مباحث علم المعاني في البلاغة العربية، ومعناه عند ابن الأثير" تخصيص الموصوف عند السامع بوصف دون ثان..."[1] وهو بهذا المفهوم يرتبط بأحوال السامع وظروفه، " فالمخاطب بقولنا: ما زيد إلا كاتب " لمن يعتقد أن زيدا شاعر لكن يدعي أن عمرا أيضا شاعر، والمخاطب بقولنا:" ما زيد إلا قائم " من يعتقد أن زيدا قاعد لا قائم أو يعلم أنه إما قاعد أو قائم، ولا يعلم أنه بماذا يتصف "[2]، وبتحليلنا لما ذهب إليه الخطيب القزويني نقف على مفاهيم تشترك مع مجالات اللسانيات التداولية وذلك في الآتي:

- ارتباطها بالسامع وهو من يوجه له الخطاب باعتبار الحال الذي هو عليه إذ نجد عبارة **لم يعتقد** قد ورد ذكرها في ثلاث مرات في الشاهد التراثي السابق، وفي ذلك اعتبار لموقف السامع، وتقدير لشأنه.

- الإفادة (الجدوى)، فكل طريقة من طرق القصر أوهيئة من الهيئات التي جاء عليها إلا ومن ورائها فائدة مخصوصة تختلف عن الأخرى.

- الدلالة الحجاجية، تستعمل القصر بمختلف طرقه من أجل التأثير في المخاطَب بتثبيت حكم من أحكام المسند أو المسند إليه في ذهنه ودحض حكم آخر، وهذه استراتيجية حجاجية معتد بها في الدرس التداولي، (وسيأتي الحديث عن الحجاج بشكل مفصل في الفصل الثالث).

---

[1] ابن الأثير، المثل السائر، ج2، ص: 05.

[2] الإيضاح، ص: 123.

بالإضافة إلى هذا توجد هناك مباحث بلاغية أخرى تضمنها كتاب الإيضاح، وهي ذات مفاهيم تداولية لا تقل أهمية عن تلك التي سبقت الإشارة إليها، إذ بسط القزويني القول فيها مدعومة بشواهد كافية، تعتد كلها بحال السامع، على نحو أسلوب الالتفات، الذي قال فيه:" إن الكلام إذا نقل من أسلوب إلى أسلوب كان ذلك أحسن تطرية لنشاط **السامع**"[1]

وهكذا دواليك مع باقي البنيات كالتعريف والتنكير، والفصل والوصل، والإيجاز والإطناب والمساواة...

والخلاصة من هذا أن السامع هو محور العملية التخاطبية ،لأن كل الأعمال المتضمنة في القول بالتعبير الأوستيني تتطلب مخاطبا معينا يتوجه إليه، بل حتى عملية توسيم الكلام وتوشيحه بالمحسنات البديعية يكون من أجله توضيحا وتأكيدا وتجميلا، وقد أشار إلى ذلك ابن ظافر الشهري بكلامه: " ... حتى فيما يعرف بالمحسنات البديعية بوصفها تحقق هدف **المرسل إليه** من الخطاب وذلك **بالتأثير فيه**"[2].

ج . الاهتمام بالخطاب (الكلام ذاته).

بعد الحديث عن المخاطب (المتكلم) والمخاطَب (السامع)، لا بد من الحديث عما يدور بينهما أثناء عملية التواصل، باعتبار الخطاب شكلا من أشكال التداولية، لأن العملية التخاطبية لا تكتمل إلا بحضور عناصرها كاملة وهي (المتكلم، السامع، والخطاب والسياق).

ومفهوم الخطاب له جذوره في البلاغة العربية، جاء في أساس البلاغة:" خاطبه أحسن الخطاب، وهو المواجهة بالكلام، واختطب القوم فلانا، دعوه لأن يخطب إليهم بخطاب..."[3].

---

[1] الإيضاح: ص: 77.

[2] ابن ظافر الشهري، استراتيجيات الخطاب، ص: 48/47.

[3] أساس البلاغة، الزمخشري، دار الفكر، بيروت لبنان، (دط) 2000م، ص: 168/167.

واستخدمه ابن فارس في حديثه عن الكلام المتداول بين المتكلم والسامع فهو " الذي يقع به الإفهام من القائل والفهم من السامع "[1] ، والمعنى ذاته أشار إليه الزركشي بقوله: "...الكلام المقصود منه إفهام من هو متهيئ للفهم..."[2] .

وبقليل من التأمل في هذه التحديدات ندرك أن الخطاب يقتضي توفر شروط كي يحرز على سمة التداول فيه ، وأهمها:

– **الإفهام (الفائدة):** بمعنى أن الكلام الذي لا نجني منه فائدة، هو من قبيل حديث النفس لا غير، بل عده بعض العلماء مثل ابن سنان الخفاجي قبحا وفسادا، "... على أنه متى لم يُفهم من الخطاب شيء كان قبيحا..."[3]، وهو الأمر الذي نبه إليه الجرجاني في حديثه عن الخطاب المعقد والغامض قائلا : "...لأن صاحبه يعثر فكرك، ويشيك طريقك إلى المعنى، ويوعر مذهبك..."[4].

وهناك شرط آخر في التوازن بين المعنى المراد إيصاله للمرسل إليه والظروف المحيطة به، أو بين النشاط اللغوي ككل وعنصر السياق، والمعبر عنه في البلاغة العربية بمفهوم **مقتضى الحال**، الذي عناه القزويني بقوله: " وأما بلاغة الكلام فهي مطابقته لمقتضى الحال مع فصاحته (...) ، ومقتضى الحال مختلف باختلاف مقامات الكلام ..."[5]، ونقلا عن

---

[1] الصاحبي ابن فارس، ص: 190.

[2] الزركشي، البحر المحيط في أصول الفقه، تح، عبد القادر عبد الله وعمر سليمان الأشقر، وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، الكويت، ط،م 1992، ج1، ص: 126.

[3] سر الفصاحة، الخفاجي، ص 212.

[4] الجرجاني، أسرار البلاغة، ص: 135

[5] السكاكي، مفتاح العلوم، ص: 168.

السكاكي أن مقامات الكلام متفاوتة، فمقام الشكر يباين مقام الشكاية ، ومقام التهنئة يباين مقام التعزية... والكلام مع الذكي يغاير الكلام مع الغبي..."[1].

وما يمكن قوله هنا، إن قيمة الخطاب عند رواد البلاغة العربية تكمن في مدى وضوحه وبيانه ، وكذا تأثيره في الآخر، ويحدثنا بمثل هذا الكلام من اللسانيين المعاصرين، اللساني بنفنيست إذ يقول: " أنه كل تلفظ يفترض متكلما ومستمعا، وعند الأول هدف التأثير على الثاني بطريقة ما..."[2].

والكلام بوصفه وسيلة المتخاطبين في تأدية الغرض الإبلاغي أشترط فيه الجرجاني التماسك والتناسق وتعلق الكلام بعضه ببعض، وهو محور نظريته الموسومة بـ (النظم)، فمزية حسن الاختيار في الألفاظ ومزية حسن الإسناد في الكلام هو مؤشر على الكفاءة التداولية لأنه يتعلق بالجانب الاستعمالي للغة، فالكلمة مفردة لا حسن لنا، لأنك ترى الكلمة تروقك وتؤنسك في موضع، ثم تراها بعينها تثقل عليك وتوحشك في موضع آخر "[3].

وفي هذا الكلامُ إشارة واضحة إلى أن عملية التواصل الناجحة لا تقتصر على الذوات المتكلمة فحسب ، إذ لابد من خطاب يحمل فائدة إلى الآخرين ويؤثر فيهم مادامت قيمته هي رهن الفائدة والتأثير .

وعن ظاهرة الاهتمام بعنصر الخطاب (الكلام) لذاته ، يظهر لنا أن القزويني لم تفته الإشارة إلى ذلك بل وجد وفي مواطن كثيرة، بدءا بإعطائه جملة من المواصفات تخص الكلام ، وهي صفة المساواة ، وصفة الإيجاز ، وصفة الإطناب، فقد عقد لها القزويني

---

[1] السكاكي، مفتاح العلوم، ص: 168.

[2] نقلا عن كتاب تحليل الخطاب الروائي، سيد يقطين، ص: 19.

[3] دلائل الإعجاز، ص: 46.

بابا خاصا أسماه " القول في الإيجاز والمساواة والإطناب"، وهذه الصفات الثلاث تخص الخطاب بالدرجة الأولى، لأنه متى تمت تأدية المعنى بلفظ مساو له وصفناه بالمساواة، وإذا عبرنا عن أصل المراد بلفظ ناقص عنه و واف قلنا عنه : كلام موجز، وأما التعبير عن المعنى بالزائد عليه من اللفظ فهو خطاب فيه إطناب .." [1].

ومن النماذج التي حللها القزويني في هذا المجال ، ـ سنأخذ بعضا منها إلى سبيل المثال إثباتا للظاهرة في الكتاب ـ قوله تعالى :" **وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ**" (البقرة 179) يعلق القزويني على هذا الخطاب بقوله : " فإنه لا حذف فيه مع أن معناه كثير يزيد على لفظه ..."[2]. هو يعني بكلامه استراتيجية الإيجاز، والمعنى الكثير الذي حوته تلك العبارات القليلة يتمثل في :" أن الإنسان إذا علم أنه متى قتل قتل، كان ذلك داعيا له قويا إلى أن لا يقدم على القتل... فكان في ارتفاع القتل حياة لهم "[3] ، وبالتالي تصدق على هذا الكلام عبارة، القتل أنفى للقتل.

وأما الخطاب الذي يتصف بصفة المساواة يقدم لنا القزويني أمثلة كثيرة، منها قوله تعالى:" **وَلَا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِ**" .(فاطر.43)، فهذه الجملة تساوي معناها، ونجده يقول عن صفة الإطناب في الكلام: "فإن المعنى إذا ألقى على سبيل الإجمال والإبهام تشوقت نفس السامع إلى معرفته على سبيل التفصيل

[1] ينظر الإيضاح، ص: 179 /180 .
[2] الإيضاح ...184.
[3] الإيضاح ..184.

والإيضاح ..." [1] ، و يكشف لنا عن مزاياه بوضوح في تحليله لقوله تعالى :" **فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ** " . (المائدة، 45) قائلا: "فإنه لو اقتصر على وصفهم بالذلة على المؤمنين لتوهم أن ذلتهم لضعفهم، فلما قيل :(أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ) علم أنها منهم تواضع لهم "[2].

هذا عن مزية تأدية المعنى بأكثر من عبارات، ولكن قد يكون في ذلك نقيصه في التعبير وحشو في الكلام ، لكنه لا يفسد المعنى كقول الشاعر:

ذكـرت أخي فعاودنـــي صـــداع الرأس والوصـــب

يذهب القزويني في تعليقة على هذا البيت قائلا :"فإن لفظ الرأس فيه حشو لا فائدة فيه، لأن الصداع لا يستعمل إلا في الرأس "[3].

وأما الزائد من اللفظ والذي قد يفسد المعنى كقول أبي الطيب :

ولا فضل فيها للشجاعة والنـدى وصبر الفتى لولا لقاء شعـوب

يقول القزويني في ذلك : " فإن لفظ الندى فيه حشو ويفسد المعنى لأن المعنى: "أنه لا فضل في الدنيا للشجاعة والصبر والندى لولا الموت، هذا صحيح في الشجاعة والصبر دون الندى .[4]

---

[1] الإيضاح ،ص :196.

[2] الإيضاح ،ص:203

[3] الإيضاح ،ص 182.

[4] الإيضاح ،ص 181.

ونجد في موضع آخر اهتمام القزويني بتداولية الخطاب ، وذلك في القصة المشهورة بين المبرد والكندي (سبقت الإشارة إليها) ، وهي بدورها تكشف لنا عن ثلاث بنيات خطابية متباينة وهي :

ـ عبد الله قائم .

ـ إن عبد الله قائم .

ـ إن عبد الله لقائم .

يبدو أن الجمل الثلاث تشترك في فعل القول، ومؤداه فعل الإسناد ، أي إسناد فعل القيام إلى عبد لله ، لكن الاختلاف الحاصل يكمن في القوة الإنجازية لهذه الخطابات، فالخطاب الأول (الجملة1) يباين الخطاب الثاني، (الجملة 2) ، والخطاب الثالث (الجملة 03) يخالف الخطابين السابقين : (ج1 وج2)، ولا شك أن الاختلاف الحاصل سببه تغير في المقامات والأحوال.

وفي مجال الاهتمام بعنصر الخطاب، يورد لنا القزويني خطابين متماثلين من حيث فعل القول، متباينين من حيث قوة الانجاز، والخطابان هما:

أ . قوله تعالى :" **وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ مِنْ إِمْلَاقٍ ۖ نَحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ** " .(الأنعام / 150).

بـ قوله تعالى :"**ولَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَاقٍ ۖ نَحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ** ."(الإسراء/31).

يذهب القزويني في تحليله لهذين الشاهدين كاشفا لنا عن سرّ اختلاف البنيتين فيقول : " أن الخطاب في الأول للفقراء، بدليل قوله : من إملاق، والخطاب في الثانية للأغنياء بدليل قوله : خشية إملاق " [1]، بمعنى أن الفقراء يقدمون على هذا العمل بسبب

[1] الإيضاح ،ص 117.

حالهم الذي هم عليه وهو الفقر، في حين يقوم به الأغنياء خوفا من الفقر الذي يحصل لهم في المستقبل، فحالهم إذا هو الغنى ، أما الفقر فمرتقب لم يحصل لهم بعد، فإن الخشية تكون مما لم يقع، فكان رزق أولادكم هو المطلوب دون رزقكهم لأن حاصل " [1].

وهذا هو السر في تقديم ضمير الغائب (هم) على المخاطب (كم) في قوله : (نحن نرزقهم وإياكم) . بخلاف الآية الأولى، (نرزقكم وإياهم) .

وفي تحليله لهذين الشاهدين نجده قد عول على القرائن اللغوية، وعلى الاعتداد بالسياق والحال، وهي مقاربة تداولية بالأساس، قد تنبه لها القزويني مبكرا وبوعي كامل قبل أن تصير التداولية منهجا وفلسفة ورؤية قائمة بذاتها .

3. متضمنات القول :

يعد مفهوم متضمنات القول(IMPLICITES) ، من أهم محاور الدرس التداولي، ومعناه حسب قول فان ديك :" لقد لاحظنا مرات عديدة أن لغة التخاطب الطبيعي ليست صريحة ، ذلك أنه توجد قضايا لا يقع التعبير عنها تعبيرا مباشرا ولكن يمكن استنتاجها من قضايا أخرى قد عبر عنها تعبيرا سليما "[2].

فالكلام ليس هو ظاهر القول المصرح به فحسب، فكثير من الكلام مثبت في السلسلة التخاطبية وغير مصرح به، وذلك لاعتبارات كثيرة كأن يكتفي المتكلم بالأهم من الكلام من

---

[1] الإيضاح ، ص: 118.

[2] فان ديك : النص والسياق ، ص:165.

غير الأهم للدلالة عليه، ولعلم المخاطب به، وأحيانا تتحقق الفائدة أكثر في إضماره، كما أشار إلى ذلك الجرجاني في الدلائل :" فالصمت عن الإفادة أزيد للإفادة"[1].

ويلجأ المخاطب إلى هذه الإستراتيجية نتيجة خلفية تواصلية مشتركة بين المتحادثين (المتكلم والمخاطب) ، كما أنه ليس حتما على المتحدث أن يقول كل شيء قولا صريحا، فالمتكلم يضطر إلى إخفاء بعض منها، والسامع عليه بالبحث عنها وتأويلها .

ومن أشكال متضمنات القول نجد الافتراضات المسبقة (الاقتضاء) : (Lesprésupposes ، والأقوال المضمرة (Les sous-entendus).

وقد تعرض لهذه المفاهيم علماؤنا القدامى تحت اسم الحذف ، وعنوا به عناية لائقة، فقد حدّه أبو حامد الغزالي بقوله :" هو الذي لا يدل عليه اللفظ ولا يكون منطوقا به، ولكن يكون من ضرورة اللفظ .."[2] ، وخصه الشريف الجرجاني بتعريف خاص مفاده، " **المقتضى** هو عبارة عن جعل غير المنطوق منطوقا لتصحيح المنطوق "[3] .

ولم يكتف علماؤنا القدامى بتقديم التعريفات فقط، بل تناولوا هذا المفهوم من جميع جوانبه اللغوية والدلالية والتداولية، وما يدل على ذلك تحليل ابن القيم لقوله . صلى الله عليه وسلم:" من صام رمضان إيمانا واحتسابا"[4]. بقوله :" ففي حذف الشهر فائدة وهي تناول الصيام لجميع الشهر، فلو قال :" من صام شهر رمضان، لصار ظرفا مقدرا بـ (في) ولم يتناول الصيام جميعه "[5] ، ومثاله من القرآن :"**ثم تولى إلى الظل** " (القصص/ 24)، فيه

---

[1] الجرجاني :دلائل الإعجاز ،ص 149.

[2] أبو حامد الغزالي : المستصفى من علوم الأصول ، دار إحياء التراث العربي ، بيروت ط3، ج2 ،ص186.

[3] الشريف الجرجاني ،التعريفات ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، ط1988،3/ ص226

[4] صحيح البخاري . باب الصوم ،ج3، ص58.

[5] البدائع ، ج2 ، ص105.

دلالة على أنه سقى لهما في شمس حارة ، فالجو الحار كلام مضمر توصلنا إلى فهمه بفضل القرائن السياقية من الكلام المنجز، وكثير من الخطابات المنجزة تحمل في طياتها حمولات دلالية، وكتل من المعلومات، ولكن تحقيقها في الواقع يبقى رهن طبيعة سياق الحديث ، والمثال على هذا كأن يقول المتكلم لصاحبه : **إن السماء ممطرة**، فهذه الجملة على قصرها تحمل معان كثيرة :

- الدعوة للمكوث في البيت .
- الدعوة للإسراع إلى العمل .
- الدعوة للانتظار والتريث حتى يتوقف المطر.
- الدعوة إلى عدم نسيان المظلة.

فالأخبار والمعلومات وإن لم يفصح عنها فهي مدرجة بطريقة آلية في الأقوال التي تتضمنها، وتدل عليها العلامة اللغوية .

وفي كل تواصل لساني ينطلق شركاء العملية التخاطبية من معطيات وافتراضات معترف بها ومتفق عليها بينهم، بحيث تشكل هذه الافتراضات الخلفية التواصلية ، ويعد الفيلسوف(بـ ، قرايس) ، ــ حسب رأي اللساني (ما نغونو) ـ أول من كون مفهوما حول ظاهرة الأقوال المضمرة باعتبار أن التخاطب يفترض تعاونا من طرف المشاركين فيه ، فضلا عن كون الخطاب يخضع لقواعد وقوانين خاصة به "[1].

[1] Dominique .mainguenaeu. pragmatique pour discours littéraire P:36

وعند تصفحنا لكتاب الإيضاح وجدنا أمثلة غزيرة تشترك مع هذه المفاهيم في محتواها، وإن كانت تختلف معها تسمية ، ولعل خير مثال أورده القزويني في الاقتضاء ما نجده في أحوال المسند إليه، المعرف باللام فهو يشير إلى معهود بينك وبين مخاطبك ، كما إذا قال لك قائل :" جاءني رجل من قبيلة كذا . فتقول :" ما فعل الرجل " ؟[1] .

فانطلاقا من الخلفية التواصلية الموجودة بينهما يفترض مسبقا أن هذا الرجل قام بفعل ما، وأنه معهود لدى المخاطب بدليل المعطى اللغوي (أل ـ العهدية) .

وفي موضع آخر نجده يقول :" وكذلك إذا قلت : بزيد مررت ، أفاد أن سامعك كان يعتقد مرورك بغير زيد، فأزلت عنه الخطأ ."[2]

وبالتحليل التداولي لهذا الكلام نقول: إن الافتراض المسبق موجود، وممثلا في المرور بإنسان ما، ولو أردنا أن نبسط الكلام أكثر لقلنا: إن الكلام المقدر في ذهن المخاطب هو أن الشخص الذي مررت به اسمه زيد وليس عمرا أو أحمد كما كنت أعتقد .

ويبرز لنا المبدأ التداولي أكثر وضوحا في الافتراض المسبق (الاقتضاء) مع الأسلوب الكنائي . بناء على اعتماد هذا الأخير ـ الكناية ـ على لازم المعنى، وهو ذاته المعنى المفترض، وسنأخذ بعضا من هذه الشواهد لكي نثبت وجود الظاهرة عند البلاغيين القدماء، والقزويني خصوصا . كقولك : **فلانة نؤوم الضحى**،أي : مترفة مخدومة غير

[1] الإيضاح ،ص48.

[2] الإيضاح ،ص115.

محتاجة إلى السعي في أمر المعاش (...) فلا تنام فيه من نسائهم إلا من تكون لها خدم ينوبون عنها "[1].

ويمكن توضيح هذا كالآتي :

امرأة نؤوم الضحى ←ـــــــــ محمول ←ـــــــــ يتكفل به المتكلم .

امرأة غنية مترفة مخدومة ←ـــــــ اقتضاء ←ـــــــ يتكفل به السامع .

والذي يعيننا على فهم المعنى المضمر هو عنصر السياق، لأن السياق التاريخي الذي قيلت فيه العبارة هو زمن الجاهلية، وكان وقت الضحى آنذاك وقت سعي نسائهم في أمر المعاش وكفاية أسبابه، وقد تطلق العبارة في سياق آخر ويكون الاقتضاء فيها غير الأول، كأن يراد به الكسل والعجز وغيرها من الصفات المعاكسة الواردة في المقام الأولى، ومن الممكن أن تتعدد الاقتضاءات في التعبير الصريح الواحد" كقولهم : **كثير الرماد كناية عن المضياف** "[2] .

فعبر التدرج في سلم التضمين نصل إلى المقصود العام، " فإنه ينتقل من كثرة الرماد إلى كثرة إحراق الحطب تحت القدور، ومنها إلى كثرة الطبائخ ومنها إلى كثرة الأكلة، ومنها إلى كثرة الضيفان، ومنها إلى المقصود[3].

وقد تحدث الجرجاني عن متضمنات القول من باب الاتساع في القول في فصل بعنوان في اللفظ يطلق ويراد به غير ظاهره، يقول :" فقد أرادوا في هذا كله كما ترى معنى لم

[1] الإيضاح 330.

[2] ا لإيضاح ،ص 332.

[3] الإيضاح ،ص 333.

يـذكروه بلفظــه الخــاص بــه. ولكـنهم توصــلوا إليــه بــذكر معنــى آخــر مــن شــأنه أن يردفه في الوجـود[1].

فهو بذلك يشير إلـى مستويين من المعنـى : المعنـى الأول وهو المباشر والحاصل من ظاهر اللفظ ، والمعنى الثاني هو ما أسماه في موضع آخر، **معنى المعنى** .

وتتضح لنا هذه الرؤية التداولية بجلاء في كتاب الإيضاح عند حديث القزويني عن أسـلوب الحـذف ، " واعلـم أن الحـذف لابـد لـه مـن قرينـة كوقـوع الكـلام جوابـا عـن سؤال .."[2] ، ومن النماذج التي عرض لها بالتحليل أيضا قوله تعالى :" **قل لو أنتم تملكون خزائن رحمة ربي** " (الطلاق /04)، تقديره : لو تملكون تملكون ، فأضمر تملك الأولى إضمارا... فانتم فاعل الفعل المضمر، وتملكون تفسيره"[3].

ونجده في موضع آخر يذهب أكثر من هذا في تقديره للمخفيات من الكلام ، كقوله تعالى :" **ولا تقولوا ثلاثة** "(النساء / 171)، فالحذف يمكن أن يكون في الوجهين: (المسند أو المسند إليه)، قيل: "التقدير ولا تقولوا ألهتنا ثلاثة، أو ولا تقولوا لنا في الوجود آلهة ثلاثة ثم حذف الخبر"[4].

فإشـارات القزوينـي إلـى هـذا المفهـوم لا تكـاد تنتهـي، ففـي حديثـه عـن الفصـل والوصل، قال :" وقد يحذف الاستئناف كله ، ويقام ما يدل عليه مقامه، كقول الشاعر :

زعمتم أن أخوتكـم قريش لهم إلف وليس لكـم إلاف .

---

[1] دلائل الإعجاز ،ص66.

[2] الإيضاح ،ص88.

[3] الإيضاح ،ص85.

[4] الإيضاح ،ص 87.

فحذف الجواب الذي هو **كذبتهم في زعمكم،** وأقام قوله : **لهم إلف وليس لكم إلاف** مقامه لدلالته عليه، وقد يحذف ولا يقام شيء مقامه كقوله تعالى :" **نعم العبد** " (سورة ص، 30) أي : أيوب ..."[1] .

ومثل هذا الكلام قد سبقت الإشارة إليه في باب الإيجاز بالحذف نحو قوله تعالى: " وجاء ربك " (الشورى /11) أي :" أمر ربك .."[2] .

هذا غيض من فيض والشواهد في هذا الباب كثيرة و ذوات العدد، والمقام هنا ليس هو مقام عدها وحصرها بقدر ما هو تبيان مدى استجابة بلاغتنا العربية لهذه المعارف الجديدة.

وختاما لهدا المبحث، إن مفهوم **التضميـــن** في الكلام، يعد من المفاهيم الأساسية في التداولية، وذلك لأنها تبحث في الذي يصل من المعاني ولم يتم قوله. والنجاح في العملية التواصلية مرهون بادراك هذه المضمرات من القول، إضافة إلى أنها تزيد من تماسك النص، ويدعم هذا الرأي المفكر اللساني (ديكرو) بقوله :"أما الاقتضاءات فإن كانت لها وظيفة فهي تمثل الشرط الأساسي للتماسك العضوي للخطاب "[3]، ناهيك عن الجانب الجمالي والفني فيه وجمالية الحذف أنه متى ظهر المحذوف زال البهاء من الكلام واندثرت بهجته وصار إلى ما يشبه الغث[4].

4 –قوانين الخطاب .

هناك جملة من القوانين تعد بمثابة عقد أو اتفاق ضمني بين المتخاطبين، وهذا العقد ليس صريحا ولا إلزاميا كالذي نجده في قوانين اللغة (قوانين النحو والصرف) ، ويعد الفيلسوف(ب قرايس) من أكثر اللسانيين المعاصرين المهتمين بتلك القوانين، لما لها من

---

[1] الإيضاح، ص 162.

[2] الإيضاح، ص 326.

[3] – Dicrot. Dire et ne pas dire . p : 91

[4] حسين جمعة في جمالية الكلمة (دراسة جمالية بلاغية نقدية ، ص 84.

أهمية بالغة في فهم الملفوظات وتأويلها، وأهم هذه المبادئ هو مبدأ التعاون، ومفاده أن على أطراف الحوار التعاون فيما بينها لتحصيل المطلوب، بمعنى أن يكشف المتحاورون عن مقاصدهم لضمان الاستمرارية في التواصل، ومن المباحث القريبة من هذا المبدأ عند القزويني، هو كيفية نقل الكلام من معناه الظاهر إلى المعنى الخفي والمقصود، وقد مثلت هذه الظاهرة عنده في ثنائية: (أسلوب/غرض)، لأن هناك جملا لا يفهم معناها إلا بتعاون المتحاورين على مؤداها وفي سياقها الخارجي كجملة " **عظم الله أجرك** "، فالمخاطب يفهم دلالتها من السياق الثقافي لها، وأنها تحمل كلاما موجها إليه، ويتمثل هذا الفعل الإنجازي في التعزية، وكأن السياق الثقافي، هنا يعد عقدا مبرما – سلفا – بين المتحاورين والذي بموجبه يحصل التفاعل اللغوي وتتم عملية التواصل، ومن الأمثلة التي يمكن أن نستدل بها عند القزويني هو تحليله الجيد لأسلوبي: الخبر والإنشاء، كقوله تعالى:﴿**وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًا**﴾[النمل، الآية: 58]، والمقصود بالمطر هنا العذاب ، وعن أسلوب الإنشاء قوله تعالى: ﴿**فَهَل لَّنَا مِن شُفَعَاء**﴾ [الأعراف، الآية: 53]، يقول القزويني:" هو استفهام الغرض منه التمني لإبراز المتمنى في صورة الممكن مع علمه أنه لا شفيع له فيه..."[1]، والكلام ذاته يقال في أسلوب الكناية فمثلا جملة " عريض الوسادة " هي تقال كرمز للبله، فهي صفة لشخص وليس صفة للوسادة في ذاتها، يقول القزويني: " فيكون الانتقال من عرض الوسادة إلى عرض القفا ومنه المقصود وهو البلاهة..."[2]، إذا فحصول الفائدة من هذه الخطابات وإدراك المعاني المستلزمة حواريا في تلك الملفوظات راجع بالأساس إلى أن أطراف الحوار قد تعاونوا فيما بينهم من أجل تحصيل المطلوب، ومتى لم يكن هناك اتفاق بين المتحاورين حدث فشل في جني ثمار الفائدة من التحادث.

[1] الإيضاح، ص: 135.

[2] الإيضاح، ص: 332.

وبعد تحديد الباحث (قرايس) للمبدأ العام (مبدأ التعاون)، عمد إلى تفريعه إلى مجموعة من القواعد الحوارية وهي، قاعدة الكم، وقاعدة الكيف، وقاعدة الملاءمة، وأخيرا قاعدة الجهة (كما مر بنا سلفا)، وسنحاول الكشف عن هذه المبادئ في كتاب الإيضاح ونبيين مدى استجابة بلاغة القزويني لطروحات (قرايس)، بدءا بقاعدة **الكم** والتي مفادها:

- لتكن إفادتك للمخاطب على قدر حاجته.
- لا تجعل إفادتك تتعدى القدر المطلوب.

فوجدنا عند القزويني ما يكافئ ذلك في حديثه عن أسلوب المساواة إذ يقول: " أن يكون اللفظ بمقدار أصل المراد لا ناقصا عنه، ولا زائدا عليه..."[1]، ويسوق في ذلك أمثلة كثيرة منها قوله تعالى: ﴿**لا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلاَّ بِأَهْلِهِ**﴾ [فاطر، الآية: 43].

وعن قاعدة **الكيف** التي مضمونها:

- لا تقل ما تعلم كذبه أو خطأه.
- لا تقل ما ليسلك عليه بينة.

يمكن الاستدلال عليها بحديث القزويني عن الصدق والكذب في الخبر: " وقال بعض الناس: "صدقه مطابقة حكمه لاعتقاد المخبر صوابا أو خطأ.."[2].

والقاعدة العامة في قانون الصدق أنه غير مضبوط بعلامة تدل عليه، وإنما في اعتقاد المخبر أنه صادق في قوله، بغض النظر عما إذا كان قوله حقيقة أم كذبا، وبهذا يصبح الصدق عرفا وأصلا في الخطاب، فالأصل في الكلام الصدق باعتبار اعتقاد المخبر وليس

---

1 الإيضاح، ص: 180.

2 الإيضاح، ص: 18.

باعتبار اعتقاد الواقع، " إنما الأساس في الخطاب أن يقول المتكلم ما يعتقده صدقا، وأن يكون هو نفسه ضامنا للصدق فيما يقول..."[1].

والقاعدة الثالثة هي قاعدة **الملاءمة** ومضمونها، ليناسب مقالك مقامك، وهي بهذا ترمي إلى الملاءمة بين القول والمطلوب، أو تعلق الخبر بالمقام، والمعبر عنه في البلاغة العربية بمقتضى الحال، " وأما بلاغة الكلام فهي مطابقته لمقتضى الحال مع فصاحته..."[2]،ويقول السكاكي أيضا: ولا يتضح الكلام في جميع ذلك... إلا بالتعرض لمقتضى الحال[3]. ولهذا ألفينا القزويني يعيب على أبي تمام قوله:

لا والذي هو عالم أن النوى صبر وأن أبا الحسن كريم

إذ لا مناسبة بين كرم أبي الحسن ومرارة النوى ، ولا تعلق لأحدهما بالآخر ... "[4]، واتجاه الملاءمة في التعبير تم التنبيه إليه في بلاغتنا مبكرا تحت شعار، **لكل مقام مقال**، لأن الناتج من ملاءمة تراكيب الكلام ومقتضى الحال هو الإفادة والاستحسان لخطاب المتكلم، والإفادة هي اتجاه تداولي مهم في تحقيق إنجازية الخطاب وضمان نجاعة التواصل.

والقاعدة الأخيرة في قوانين الخطاب هي قاعدة **الجهة** (الكيفية)، وتسمى بالكيفية لأنها تبحث في الكيفية التي يقال بها وتتمثل في:

- لتحترز من الالتباس والإجمال.
- لتتكلم بإيجاز.
- لترتب كلامك.

---

[1] عمر بلخير، تحليل الخطاب المسرحي في ظل النظرية التداولية.ص107

[2] الإيضاح، ص: 110.

[3] السكاكي، مفتاح العلوم، ص: 252.

[4] الإيضاح، ص: 152.

وهدف هذه القاعدة بالدرجة الأولى هو تجنب الاضطراب والملل والحشو والغموض، وهي صفات كلامية تعتبر من مفسدات الكلام ومعيقات التواصل.

ويشير القزويني إلى هذه القاعدة في حديثه عن الإيجاز وأمن اللبس، وذلك في تحليله لقوله تعالى: ﴿ **هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ**﴾[البقرة، الآية: 02]، أوجز معنى هدى للضالين الصائرين إلى الهدى بعد الضلال حيث توصل إلى تسمية الشيء باسم ما يؤول إليه..."[1].

ويظهر حديثه عن أمن اللبس في الكلام، في قوله في باب الوصل والفصل: " إما لدفع إيهام خلاف المقصود كقول البلغاء: **لا وأيدك الله**، وهذا عكس الفصل..."[2]، فالعبارة من غير وصل تكون كالتالي:**لا أيدك الله**، ويصير معناها نفي حكم التأييد من الله ، وهذا معنى فاسد وغير مقصود، ولكن في مقام وصلها بالواو، (لا وأيدك الله) تفيد معنيين منفصلين وهما: نفي الحكم فيما قبلها، ودعاء لمن هو أمامه، إذا فالوصل بالواو ضروري هنا اتقاء التباس المعاني على المخاطبين، وبالتالي ضياع الغاية الأولى من اللغة ، **وهي التفاهم**، وإذا وقع اللبس في الخطاب بسبب الخلل في التراكيب النحوية أو سبب عدم وضوح الدلالة، وقد يكون متعمدا من قبل المتكلم مثلما يحدث في خطاب الألغاز، أعتبره قرايس " خرقا لقواعد الخطاب أو استخفافا بقواعد الخطاب عن قصد وعلانية..."[3].

ومن اللبس التركيبي الذي سببه التقديم والتأخير البيت المشهور للفرزدق:

ما مثله في الناس إلا مملكا أبو أمه حي أبوه يقاربه

ومن اللبس بسبب التورية قول الشاعر:

فخلطتم بعض القرآن ببعضه فجعلتم الشعراء في الأنعام

---

[1] الإيضاح، ص: 185.

[2] الإيضاح، ص: 162.

[3] الاقتضاء في التداول اللساني، عادل فاخوري، ص: 148.

والنتيجة من هذا أن نجاح العملية التواصلية بين المتخاطبين مرهون بمدى فهم المخاطب لقصد المخاطِب، كما أنه لا يكفي التعويل على الكفاية اللغوية وحدها في فهم المقاصد، فكثير من البنى اللغوية لا تنسجم مع قصود المتكلمين بسبب الخروقات التي ربما تحصل في قوانين الخطاب السالفة الذكر، ومنه استوجب التعويل على ما يحيط بالخطاب من ظروف وملابسات (السياق) حتى يستقيم المعنى وتتم عملية التواصل.

5 . القصدية في الخطاب .

يطلق هذا المبدأ التخاطبي على كل ما يريده منتج الكلام من أية تشكيلة لغوية، وفي ذلك يقول ابن جني في تعريفه للغة: " أما حدها فإنها أصوات يعبر بها كل قوم عن أغراضهم ..."[1]، يظهر لنا أن الغاية التواصلية المراد تحقيقها من الخطاب تتجسد عبر اللغة بعدّها علامة أو دليلا على ما يتضمنه عقل المتكلم من اعتقادات ورغبات وغيرها.

وتعد محاولة رصد هذه الجوانب الخفية التي يقصدها المنتجون للكلام أثناء ممارستهم للنشاط اللغوي منحى تداوليا، لأن نجاح التواصل هو رهن تلك الفهوم لدى المخاطب وما يخفيه من معان، والخطاب وما يحمله من حمولات دلالية، والسامع ومقدرته على التأويل.

بعد هذه الإشارة المقتضبة لمفهوم القصد في الكلام، نحاول أن نبين درجة كفاية ما ذهب إليه القزويني في مدونة الإيضاح، لقد جاء في كلامه: " أن إسناد الكلمة إلى الكلمة يحصل **بقصد** المتكلم دون واضع اللغة، فلا يصير (ضرب) خبرا عن (زيد) بواضع اللغة، إنما بمن **قصد** إثبات الضرب فعلا له، " ثم نجده يردف كلامه بتحليل أعمق إذ يقول: " فالذي يعود إلى واضع اللغة أن (ضرب) لإثبات الخروج، وأنه لإثباته في زمن ماض وليس في زمن مستقبل، فأما تعيين من ثبت له فإنما يتعلق بمن أراد ذلك من المخبرين..."[2]

[1] ابن جني، الخصائص، ج1، ص: 68.

[2] الإيضاح، ص: 29.

نلاحظ في نص القزويني حضورا قويا لمبدأ القصدية في الكلام، دلت عليه الكلمتان (قصد) و (أراد) الوارد ذكرها في نصه، وبما أن القصد والاعتقاد محلها عقل المخاطب وهو وحده المعول عليه في إدراك المقاصد والوصول إلى المعاني المخفية، وجدناهم وصفوا بعض الكلام بالمجاز العقلي بناءا على اعتقاد المتكلم . وقد أشار القزويني إلى هذا عندما تكلم عن الحقيقة والمجاز قائلا: "... ما يطابق الواقع واعتقاده، وما يطابق الواقع دون اعتقاده، وما يطابق اعتقاده دون الواقع، وما لا يطابق شيئا منها... "[1].

ونراه يعني بالاعتقاد كخاصية عقلية أنها نية المتكلم وقصده، ومن الشواهد التي درسها القزويني حول مفهوم القصدية، وهي كثيرة ومتنوعة، منها قوله تعالى: ﴿**حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ وَالدَّمُ وَلَحْمُ الْخِنزِيرِ**﴾ [المائدة، الآية: 03]، والمقصود هو حرم عليكم أكل لحم الميتة . **وقوله تعالى : حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَاتُكُمْ**﴾ [النساء، الآية: 23]، والمقصود هو حرم عليكم نكاح أمهاتكم، لأن الغرض الأظهر من الميتة هو التناول، ومن النساء هو النكاح..."[2].

ويتضح لنا اعتداده بالقصد والتعويل عليه كثيرا في فهم النصوص كتعليقه على قول الشاعر :

وما أنا أسقمت جسمي به ولا أنا أضرمت في القلب نارا

إذ المعنى أن هذا السقم الموجود والضرم الثابت ما أنا جالب لهما، فالقصد إلى نفي كونه فاعلا لهما، لا إلى نفيهما .."[3].

والأمر نفسه مع باقي البنيات البلاغية الأخرى، فلا يذكر القزويني أسلوبا إلا ومعه الغرض البلاغي المستفاد منه وعليه جاز لنا القول أن مفهوم (الغرض) عند بلاغيينا

[1] الإيضاح، ص: 28.

[2] الإيضاح، ص: 88.

[3] الإيضاح ، ص:59.

القدامى يكافئ مفهوم (القصدية) عند المنشغلين بالدرس التداولي حاليا. وحتى القدامي أنفسهم يستعملون مصطلح الغرض تارة ومصطلح القصد مرة أخرى .

وفي هذا دليل على أنهم مارسوا المنهج التداولي، وتناولوه بشيء من التفصيل وبمسميات خاصة بهم، قبل أن يذيع صيته الآن كفلسفة ومنهج ورؤية له حدوده ومعالمه في حقل اللسانيات المعاصرة .

6 ـ السيـــــــــاق و المقـــــــام .

يعتبر السياق من أهم مرتكزات اللسانيات التداولية في دراستها للغة أثناء الاستعمال، لأن الملفوظات التي تتم بها عملية التواصل لا يمكن تفسير دلالتها إلا بردها إلى إطارها السياقي الذي وردت فيه، يقول اللساني بلومفيد :" إن دلالة صيغة لغوية ما، إنما هي في المقام الذي يفصح فيه المتكلم عن هذه الدلالة والرد اللغوي أو السلوكي الذي يصدر عن المخاطب .."[1].

وهذا المحيط الخارجي الذي يجب معرفته في تفسير اللغة المتواصل بها يتضمن الزمان والمكان، والنظم والعادات والتقاليد وأغراض المتكلم، ومفهوم السامع وأحواله.

والاهتمام بهذا العنصر اللساني ألتفت إليه مبكرا علماؤنا العرب القدامى، ثم عمق البحث فيه علماء اللسانيات الاجتماعية والتداولية، فأخذ مسارا أعمق وبعدا أكبر، وازداد اتساعا وتنوعا في مجالات واسعة وعبر "فضاءات معرفية كثيرة منها ما هو مرتبط بالمتكلم والمتلقي وشروط الإنتاج اللغوي والزمان والمكان"[2].

---

[1] نقلا عن كتاب ... مبادئ في اللسانيات. خولة طالب الابراهيمي .ص: 120.

[2] السياق والنص الشعري من البنية إلى القراءة، علي أيت أوشان . مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء، المغرب،ط1 ،2000.ص 16.

والبلاغيون العرب قد عرفوا هذا المفهوم (السياق) بمفاهيم عديدة منها المقام ، ومقتضى الحال،و مناسبة القول، فقد جاء في كتاب الصناعتين ."واعلم أن المنفعة مع موافقة الحال وما يجب لكل مقام مقال.." [1]، واعتمده المفسرون كعنصر مهم في تفسير القرآن ، ممثلا في معرفة أسباب النزول، وأن القرآن يفسر بعضه بعضا، ودور السنة النبوية في تفسيره، فهي كلها عناصر محيطة بالنص يجب أخذها بعين الاعتبار.

ومن الإشارات إلى هذا المفهوم في كتاب الإيضاح نجد القزويني يعطي مفهوما للبلاغة استنادا إلى مراعاة مقتضى الظاهر، فيقول : " وبلاغة الكلام مطابقته لمقتضى الحال مع فصاحته..."[2].

وتتبدى عنايته بهذه الفكرة أكثر من خلال وضوح المعاني لدى السامع واستطاعته إدراكها بيسر، "فالكلام الخالي من التعقيد المعنوي. ما كان الانتقال من معناه الأول إلى معناه الثاني الذي هو المراد به ظاهرا، حتى يخيل إلى السامع أنه فهمه من سياق اللفظ..."[3].

ومما يراعى في السياق أيضا حال المخاطب، وقد مر بنا الحديث عن المقامات الثلاث في قصة المبرد مع الكندي[4] .

وكشفت لنا هذه القصة عن أضرب الخبر باعتبار مقامات السامع وحاله، وهي :

- مقام المستقبل للخبر.
- مقام المتردد والشاك في الخبر .
- مقام المنكر له .

---

[1] أبو هلال العسكري : الصناعتين . تح محمد علي البجاوي،ط1(1952) .ص 153.

[2] الإيضاح ، ص :11.

[3] الإيضاح،ص 05

[4] ينظر القصة كاملة في ص :53.

ورأينا كيف حصل التغيير في الجمل (عبد الله قائم، إن عبد الله قائم، وإن عبد الله لقائم) وذلك مراعاة لتلك المقامات .

والحقيقة أن فكرة السياق والمقام تؤطر عمله في كثير من المباحث التي تضمنها كتاب الإيضاح، من ذلك تعليقه على قوله تعالى :" **صبغة الله**" (البقرة /138)، قال : "فهو مبني على سياق أن النصارى كانوا يغمسون أولادهم في ماء أصفر ويقولون هو تطهير لهم (....) وأمر المسلمين أن يقولوا لهم : قولوا أمنا بالله، وصبغنا الله بالإيمان (...) وجيء بلفظة الصبغة للمشاكلة ... وإن لم يكن قد تقدم لفظ الصبغ ، لأن قرينة الحال –هي سبب النزول من غمس النصارى أولادهم في الماء الأصفر – دلت عليه "[1]، فلولا تعويل السامع على المقام وقرائن الأحوال لم تحصل له الفائدة من الخطاب. فالمتلقي دائما يستند إلى معطيات السياق والمقام في بحثه عن القصد من الكلام ، ولا يمكن الوصول إلى مفهوم الخطاب القرآني السابق (صبغة الله) ، ما لم نعرف الخلفية التاريخية لها والمعبر عنه بالسياق الثقافي و (بسبب النزول). وعلى محلل الخطاب ألا يغفل عن هذا في تحليله للنصوص، فثمة وحدات لغوية تتطلب أكثر من غيرها معلومات سياقية لتيسير الفهم، وبالتالي التفاعل مع النص والوصول إلى مراد المتكلم، وهذا ما فتئت تؤكده اللسانيات التداولية، فهذا (أوستين) يرى :"أن ما نستعمله من ألفاظ ينبغي أن نرجع في بيان معانيها ولغاية تأويلها إلى سياق الكلام ومقتضى الحال الذي وقع فيه تبادل التخاطب اللساني "[2].

ومما يبين كذلك عناية القزويني بدور السياق في تحديد قصد المتكلم والإسهام في إفادة المخاطب ذكره للقصة المروية عن الأصمعي ومفادها :" كان أبو عمر بن العلاء وخلف الأحمر يأتيان بشار [...]، فقالا: ما هذه القصيدة التي أحدثتها في ابن قتيبة ...؟

[1] الإيضاح ،ص177.

[2] نظرية أفعال الكلام العامة (أوستين) ص120.

[...] فبلغنا أنك أكثرت فيها الغريب ، قال : نعم ، إن ابن قتيبة يتباصر بالغريب، فأحببت أن أرد عليه ما لا يعرف، قالا : فأنشدناها يا أبا معاذ ، فأنشدهما :

بكّرا صاحبيّ قبل الهجير إن ذاك النجاح في التبكـــير

حتى فرغ منها. قال له خلف : فلو قلت يا أبا معاذ مكان (إن ذاك النجاح): (بكّرا فالنجاح) كان أحسن، فقال بشار : إنما بنيتها أعرابية وحشية فقلت :إن ذاك النجاح كما يقول الأعراب البدويون، ولو قلت: بكّرا فالنجاح، كان هذا كلام المولدين ".[1]

فالظاهر من نص القزويني أن في تعبيرات بشار وتعليلاته ما يتقاطع كثيرا مع فكرة مقتضى الحال ، ويظهر ذلك في ثلاثة مواضع .

أ . لما كان المقام مقام التباهي بالغريب [عند ابن قتيبة] وجدنا المقال مناسبا لذلك [قصيدة بشار] .

ب . وعند الحديث عن تقدم العرب البدو الخلص في مجال البلاغة أختار من التعبير ما يتوافق معهم [إن ذاك النجاح]، وكأن في هذه العبارة استشرافا للسؤال العالق بذهن المخاطب عن سبب التبكير.

ج - بينما عبارة (بكرا فالنجاح) التي عدل عنها في التعبير، هي لمقام المولدين أقرب وانسب[2].

وخير ما نختم به كلامنا حول هذا المبحث، هو ما أشار إليه الباحث تمام حسان عن تعرض البلاغيين العرب لفكرة السياق وتحليلهم لمفهوم " **لكل مقام مقال،** قائلا :" ولقد كان البلاغيون عند اعترافهم بفكرة المقام متقدمين ألف سنة تقريبا على زمانهم ، لأن الاعتراف

---

[1] الإيضاح 25.

[2] الإيضاح، ص:25.

بفكرتي: المقام والمقال باعتبارهما أساسيين متميزين من أسس تحليل المعنى، يعتبر الآن من الكشوف التي جاءت نتيجة لمغامرات العقل المعاصر في دراسة اللغة ..." [1].

وفي شأن هذه التقاطعات الحاصلة بين البلاغة العربية والدرس التداولي الحديث، يعترف الباحث صلاح فضل بوجود وشائج قربى بينهما إذ يقول :" ويأتي مفهوم التداولية ليغطي بطريقة منهجية منظمة المساحة التي كان يشار إليها في البلاغة القديمة بعبارة مقتضى الحال، وهي التي أنتجت المقولة الشهيرة في البلاغة العربية (لكل مقام مقال)[2] .

7 . الإحالة بالإشاريات (المبهمات) :

احتلت الإشاريات (المبهمات) مكانة هامة في الدراسات اللغوية قديما وحديثا، لما لها من دور أساسي في ربط أجزاء النصوص وتماسكها ، كما تعين على الفائدة والتأكيد والاقتصاد في اللغة لأنها تغني عن ذكر المشار إليه واستحضاره في الخطاب، وهي متنوعة منها :

ـ الضمائر، (أنا ، أنت، هي . هو ....)

ـ الموصولات،(الذي ، التي ، من ،ما...) .

ـ أسماء الإشارة، (هذه ،هذا ، أولئك ...) .

ـ الظروف المكانية، (هنا، هنالك، تحت ، فوق ...) .

ـ الظروف الزمانية، (أمس، ماض ، مستقبل، العصر الجاهلي ..) .

وأما عن الجانب التداولي في حقل الاشاريات، فيمثله الجانب الاستعمالي لها .

فالإشارة بـ (أنا، أولئك ، أمس) مثلا لا تتحدد دلالتها إلا وهي مستعملة، لأنها لا تحمل معنى تاما بذاتها إلا بالرجوع إلى من تحيلنا إليه، فعندما يقول المتكلم : أنا ناجح ويرد

[1] اللغة العربية، معناها ومبناها ، تمام حسن، ص 98.

[2] بلاغة الخطاب وعلم النص، صلاح فضل، دار الكتاب المصري، القاهرة ،ط1/ 2004، ص 26.

السامع: علمت ذلك بالأمس فالعناصر الإشارية (أنا ،ذلك ، أمس) الواردة في الخطاب مبهمة بمفردها .

شيء آخر يكشف عن تداوليتها ويعول عليه كثيرا في تبيان وظيفتها المقاصدية وتفسيرها، هو عنصر السياق الذي وردت فيه، إذ كيف نفهم عبارة من قبيل، (ضع هذا هنا) لولا التعويل على المقام الذي وردت فيه، والمسمى بسياق الموقف.

والإحالة قسمان حسب رأي (هاليدي) : إحالة نصية ، أي من داخل النص، وإحالة مقامية أي من خارج اللغة .." [1]، وهذه الأخيرة يتوقف تأويلها على معرفة الموقف.

وبقراءة متأنية لكلام القزويني نجده في باب أحوال المسند إليه، قد أشار بما فيه الكفاية إلى جميع أنواع الإحالات التي سبق ذكرها، فعن الإشارة بالضمير ألفيناه يقول :" فإن كان بالإضمار فإما لان المقام مقام التكلم، كقول الشاعر:

أنا المرعث لا أخفي على أحد درت بي الشمس للقاصي والداني

وإما لأن المقام مقام الخطاب كقول الحماسية (أمامه):

وأنت الذي أخلفتني ما وعدتني وأشمت بي من كان فيك يلوم .

وإما لأن المقام مقام الغيبة كقوله تعالى :"**اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى**"[2] (المائدة /08).

ويذهب القزويني أكثر من هذا في تحليله للإحالة بالضمائر، وذلك في كلامه عن أسلوب الالتفات بعده انتقالا من أسلوب إلى أسلوب آخر معتمدا في النقل على تغيير الضمائر .

[1] – HALLIDAY –AND–R.HASSAN .COHESION IN ENGLISH.P.1/4

[2] الإيضاح ، ص:41

فمرة من المتكلم إلى الخطاب، ومرة من المتكلم إلى الغيبة وقد يكون من الخطاب إلى الغيبة [1].

وفي حديثه عن ضمير الشأن يقول :" فإن السامع متى لم يفهم من الضمير معنى ، بقي منتظرا لعقبى الكلام كيف تكون، فيتمكن المسموع بعده في ذهنه فضل تمكن، وهو السر في التزام تقديم ضمير الشأن نحو قوله تعالى :"**قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ**" . (الإخلاص.01).

وفي الأمثلة التي يقدمها القزويني إلا ويورد معها المقصد من ذلك ، وعليه يمكن أن نوسم هذه التعليلات بالتحليلات التداولية ، في كونها تعتد بعنصري : المقام والمقصد في تفسير هذه العناصر اللغوية .

وفي موضع آخر من الكتاب ألفيناه مهتما بعنصر الإحالة بوساطة أسماء الإشارة قائلا:"...وإن كان بالإشارة فإما لتمييزه أكمل تمييز لصحة إحضاره في ذهن السامع بوساطة الإشارة حسا كقول ابن الرومي :

هذا أبو الصقر فردا في محاسنه.

وإما لبيان حاله في القرب أو البعد أو التوسط كقولك : هذا زيد وذلك عمر، وذاك بشر..." [2].

[1]- الإيضاح، ص75.

[2]- الإيضاح، ص :45/44.

والإشارة بهذه العناصر ومتعلقاتها مع ورودها في سياقاتها المختلفة تحيل المخاطب إلى إحالة خارجية (خارج النص)، مثل الإحالة إلى صفة التحقير كقوله تعالى :"**وَمَا هَذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَهْوٌ وَلَعِبٌ**"(العنكبوت ،64.) .

وربما جعل البعد ذريعة للتعظيم نحو:"**المذَلِكَ الْكِتَابُ**"،(البقرة 01)،وكذلك قوله تعالى:"**أُولَئِكَ عَلَى هُدًى مِنْ رَبِّهِمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ...**"(البقرة ــ 05)، أفاد اسم الإشارة زيادة الدلالة ..."[1]

ويرى بعض الباحثين أن (أل) التي للتعريف تدخل ضمن العناصر الإشارية ، لأنها تقوم بالوظيفة التي يقوم بها اسم الإشارة. غير أن (أل) غير موسومة بالقرب أو البعد"[2].

ويتأكد لنا هذا المذهب عند القزويني في قوله :" ... وإن كان باللام فإما للإشارة إلى معهود بينك وبين مخاطبك. كقوله تعالى :"**وَلَيْسَ الذَّكَرُ كَالْأُنْثَى**"(أل عمران 36)، أي: ليس الذكر الذي طلبت كالأنثى الذي وهبت".

وكذلك الإحالة بالموصولات هي الأخرى أخذت حصتها من كتاب الإيضاح جاء في شأنها "وإن كان بالموصولية فإما لعدم علم المخاطب بالأحوال المختصة به، سوى الصلة كقولك : الذي كان معنا أمس رجل عالم " [3]. والأمثلة في هذا الباب كثيرة ومتنوعة .

---

[1] الإيضاح ، ص47/ 48.

[2] محمود أحمد نحلة، أفاق جديدة في البحث اللغوي المعاصر، ص 22.

[3] الإيضاح ، ص74.

الفصل الثالث

الآليات البلاغية للخطاب الحجاجي في كتاب الإيضاح.

- مفهوم الحجاج.
- الحجاج في الفكر اللغوي قديما وحديثا.
- الحجاج بأساليب المعاني.
- الحجاج بالصور البيانية .
- الحجاج بالمحسنات البديعية .

مفهوم الحجاج :

الحجاج لغة : جاء في أساس البلاغة :"حاجّ خصمه فحجّه، وفلان خصمه محجوج"[1]. ومعنى محجوج أي مغلوب، وورد في لسان العرب "فالحجّة ما دوفع به الخصم ، ورجل محجاج أي جدل، والتحاجّ التخاصم وحاجه أي نازعه الحجة "[2].

يظهر لنا مما سبق أن الحجاج يكون للخصومة والنزاع بواسطة الأدلة والبراهين الكلامية والحجج العقلية ، وفيه تكون الغلبة للخطاب الذي يقيم الحجّة والبرهان على صحة ما يدعي، وبهذا المعنى ورد ذكره في عديد من االيات القرآن الكريم ، منها :" وَالَّذِينَ يُحَاجُّونَ فِي اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مَا اسْتُجِيبَ لَهُ حُجَّتُهُمْ دَاحِضَةٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ " (الشورى الآية 16) .

ومن خلال هذه التحديدات المعجمية ، يتبين أن لفظة الحجاج أو المحاجة تتضمن معنى التخاصم ، والجدل والغلبة ، "وسميت الحجّة حجّة لأنها تحج أي تقصد "[3].

ولكي تتحقق عملية الحجاج يشترط وجود طرفين بينهما جدال، وبالتالي فالمحاجج يشترك مع الطرف الأخر في النشاط التواصلي، لأنه يعمد فيه إلى استعمال الدليل الى قصد معين.

---

[1] الزمخشري: أساس البلاغة ، تح عبد الرحيم محمود، دار المعرفة بيروت لبنان .ط1 ، 1998 .ص74.

[2] ابن منظور: لسان العرب مادة(ح.ج ج) المجلد الرابع ، دار صادر بيروت لبنان، ط1 ، .2000،ص38

[3] المرجع نفسه ،ص39.

الحجاج اصطلاحا : يعتبر الحجاج شكلا من أشكال التواصل اللغوي، يسعى من خلاله المتكلم إلى التأثير في السامع، ويحاول جلب انتباهه ، ثم العمل على إقناعه وكسب رأيه وتأييده وإفحامه وغلبته بغية تعديل المتلقي من سلوكه ورأيه، وهذه المعاني كلها مستمدة من تحديدات وإشارات كثير من أقطاب هذه النظرية الحجاجية في الفكر اللغوي والبلاغي المعاصرين، ومنهم (ح.بيرلمان) ، إذ يقول عن الحجاج هو:" حمل المتلقي على الإقناع بما نعرضه عليه أو الزيادة في حجم هذا الإقناع[1].

ويعرفه الباحث طه عبد الرحمان قائلا :"حد الحجاج أنه كل منطوق به موجه إلى الغير لإفهامه دعوى مخصوصة يحق له الاعتراض عليها [2]، وحسب رأيه دائما أنه صفة ترفق كل خطاب" ، إذ الحجاج يوصف بأنه طبيعة في كل خطاب "[3].

وقد ذهب بعضهم أن اللغة ذات بعد حجاجي في جميع مستوياتها لأن المتكلم يستخدم الوحدات اللسانية حسب ما يريد إبلاغه من أفكار، وبالقدر المقصود، ووفقا لأغراض التواصل المختلفة.

وباعتبار أن الخطاب ممارسة كلامية بين طرفين أو أكثر ومن أجل إقامة علاقة تواصلية استوجب على الطرف الأول (المتكلم) أن يدعي أمرا ، وعلى الطرف الثاني (السامع) ، أن يعترض ذلك طالبا الدليل والحجة، وعليه نستنتج أن الإدعاء والاعتراض ركنان أساسيان في العملية الحجاجية .

---

[1] سامية الدريدي : الحجاج في الشعر العربي القديم (من الجاهلية إلى القرن الثاني الهجري).بناياته وأساليبه، عالم الكتب الحديث ،ط1.(2001) ، ص 21.

[2] طه عبد الرحمان :اللسان والميزان والتكوثر العقلي ، ص266.

[3] المرجع نفسه ، ص2013.

ومن بواعث الحجاج أيضا نجد عنصر الاختلاف باعتباره المحرك الأول له، إذ لا تحاجج في أمور حقيقية ويقينية مسلّم بها، كالمعارف الرياضية ، وإنما يكون الحجاج فيما هو مرجّح وممكن ومحتمل ، فالممارسة الخطابية الحجاجية تكون في المتغيرات والوقائع والافتراضات والثوابت والحقائق، ويمكن أن نضيف الى هذا ، أن عنصرالاختلاف بين المتكلم والسامع يقوى عنصر التجاذب بينهما، وبهذا تزداد الحاجة إلى الاستدلال وتدعيم الكلام بالوسائل اللغوية، والأساليب البلاغية بغية إتمام عملية **الفهم** و**الإفهام** و**الإقناع** و**التأثير** بشكل أفضل .

والحجاج مفهوم متشعب لتشعب مجالاته واستعمالاته ، فهو يستمد معناه من المرجعية الخطابية المحددة، ومن خصوصية الحقل المعرفي والتواصلي الذي ينتمي اليه ، " فلا غرابة والحالة هذه أن هناك حجاجا خطابيا (لسانيا) ، وحجاجا خطابيا (بلاغيا) ، وآخر قضائيا أو سياسيا ، أو فلسفيا "[1].

وفي فكرنا اللغوي العربي نجد مصطلحات كثيرة تتقاطع مع مصطلح الحجاج . منها :**الاحتجاج، الاستدلال، الإلجاء، الاستدراج، مجاراة الخصم** ...الى غيرها .

[1] حبيب أعراب : الحجاج والاستدلال الحجاجي،عالم الفكر، مجلة دورية محكمة، الكويت،العدد 1 سبتمبر 2011 ، ص 98/97.

الحجاج في الفكر اللغوي قديما وحديثا .

لقد اهتم اليونانيون القدامى كثيرا بفنون الكلام وخاصة في الخطابة والشعر، ويعدّ الفيلسوف أرسطو من المنظرين لهذين الفنين، فحسب رأيه أن الكلام خاصية من خصائص الإنسان يريد بها الإقناع والتأثير، وذلك من خلال قوله :" فالإنسان لأنه متكلم معبر يبحث بطبعه عن الإقناع ويحاول أن يصل بكلامه إلى إقناع أكبر عدد ممكن من الناس بوسائل مستمدة من التفكير الذي حوبي به من الطبيعة " [1].

وفي رأيه أيضا أن الخطابة قرينة الجدل ، وأنهما متحدان ومتصلان ببعضهما البعض، "إن كل الناس يلجأون للخطابة والجدل بدرجات متفاوتة، وكل إنسان يحاول ما أمكنه الجهد أن يعارض حجة من الحجج أو يدعمها "[2].

وفي حديثه عن فن الخطابة وعن وسائل الإقناع فيها نجده يميز بين نوعين من الحجج والأدلة : حجج غير مصنوعة ،"التي لا دخل لنا فيها لأنها سابقة عن تصرفاتنا مثل الشهود في القضية والتعذيب " وحجج مصنوعة :"وهي كل ما يمكننا جمعه بأنفسنا"[3]، وتعتبر الأدلة المصنوعة جوهر الخطابة لديه، فهي تقوم على ثلاثة أنواع : ما يتصل بأخلاق الخطيب نفسه وهو الموسوم عنده بحجة "**الايتوس**"، وما يتصل باستعداد السامعين ، والمسمى بحجة " **الباتوس** " ، وما تعلق بالخطبة ذاتها ، خاصة اذا كانت استدلالية فهي تنعت بحجة "**اللوغوس** " ،أي الكلام والعقل .

---

[1] أرسطو طاليس : كتاب الخطابة ، ترجمة إبراهيم سلامة،مكتبة الانجلو المصرية ، مصر، ط2، 1953 ص24.

[2] م ن ، ص : 75.

[3] .م ن ،ص:84.

كما لا يخفى أن سقراط قد تكلم عن فن الخطابة قبل أرسطو ، وحصرها في خطتين اثنتين وهما : جدلية ونفسية، ورأى أنه لابدّ للخطابة الجدلية من أمرين اثنين: التركيب والتحليل، وسمي أصحاب القدرة على التركيب والتحليل بـ **الجدليين**، و في تعريف سقراط للبلاغة أو الخطابة بقوله : " الخطابة هي صانعة الإقناع"[1] ،تطابق تمام مع الحد الذي وضعه ارسطو للبلاغة والخطابة من قبله، يقول أرسطو معرفا البلاغة بانها:" الكشف عن الطرق الممكنة للإقناع في أي موضوع كان "[2].

ولا ننسى رأي أفلاطون قبلهما ، وموقفة المعادي للبلاغة باعتبارها قائمة على الرأي والأهواء والرغبات ، فهو يسمها "ببلاغة الحشود الشعبية " ، التي لا تسمح بإنتاج المعرفة، وفي رأيه ، أنه لا ينبغي الاحتكام إلى العامة حينما يتعلق الأمر بالمعرفة، بحكم أن البلاغة فن جماهيري مما يحتم التوجه إليهم .

و ما يمكن قوله ، إن البلاغة الأقناعية (الخطابة)أقام صرحها أرسطو في مصنفه الشهير " **كتاب الخطابة** "، الذي تناول فيه مباحث الحجاج السابقة والمعاصرة معيدا صياغتها من جديد ، وخاصة إنجازات السفسطائيين الذين كانوا في الأصل معلمي الخطابة، أي البلاغة الإقناعية التي تؤهل لاحتلال المراتب السياسية اللائقة في الحاضرة الأثينية [3].

---

[1] ـ مجلة عالم الفكر ، السابق ذكرها ، ص :26.

[2] ـ المرجع نفسه ، ص :26

[3] ـ المرجع نفسه، ص 21/20 .

ـ أما عند علماء العرب فنجد لديهم عناية فائقة بالكلام والتخاطب، وذلك في تقسيمهم له باعتبار طبقات الناس، " فيخاطب السوقي بكلام السوقة و البدوي بكلام البدو (...) ولا يتجاوز به عما يعرفه إلى ما لا يعرفه ، فتذهب فائدة الكلام وتعدم منفعة الخطاب " [1]. ويعتبر الجاحظ من أكبر العلماء اهتماما ببلاغة الكلام ، فمدار الحديث في كتابه البيان والتبيين تقريبا حول بلاغة الخطاب، والكشف عن وجوه الحجاج فيه تحت اسم **البيان** ، فيقول : " مدار الأمر والغاية التي يجري إليها القائل والسامع إنما هو الفهم والإفهام، فبأي شيء بلغت الإفهام وأوضحت عن المعنى، فذلك هو البيان في ذلك الموضع "[2] . فالظاهر من هذا القول أن البيان عند الجاحظ بمعنى الفهم والإفهام ، وهذا الأخير أي الإفهام يقابله في النظرية الحجاجية المعاصرة مفهوم "**الإقناع**"، وفي هذا المقام تحضرنا دراسة قام بها الباحث محمد العمري حول كتاب البيان والتبيين للجاحظ ، وهي دراسة استطاع من خلالها أن يقف على مجموعة من الصفات المتعلقة بالبيان والغرض منه ، وهي بدورها تكشف عن مدى عمق الدراسة اللغوية عموما ، وعن تجذر الخطاب الحجاجي عند العرب ، وهذه الصفات هي مصنفة في الجدول التالي[3] :

---

[1] أبو هلال العسكري : الصناعتين ، دار الكتب العلمية بيروت لبنان ،ط2 ،1989 ن ص39.

[2] الجاحظ : البيان والتبيين ، دار ومكتبة الهلال ، بيروت لبنان ، ط2 ، 1992،ص 82.

[3] محمد العمري : البلاغة العربية أصولها وإمداداتها ، ص 198،199.

المؤهلات والعوائق		صفات البيان وموضوعه		الغرض
المؤهلات	العوائق	الصفات	الموضوع	التأثير
المنطق الأحلام العقول الدهاء المكر الألسنة النكراء التمييز السياسة لباس التقوى طابع النبوة	العي الحصر ضيق الصدر توقف اللسان اللثغ	الإبلاغ الإبانة الإفصاح الفصاحة الوضوح الوضوح الصحة البيان حسن التفصيل الإيضاح وضوح الدلالة الإفهام الفهم الاحتجاج الإبانة	الدعوة إلى مقالة الدفاع عن نحلة إبلاغ الرسالة الحجة الحاجة المنازعة	استمالة القلوب ثني الإقناع التصديق ميل الأعناق فهم العقول إسراع النفوس الاستمالة الاضطرار التحريك حل الحيرة

و بعد النظر في هذا الدول نخلص الى أن قراءة الباحث العمري تكشف صراحة عن المكون التداولي والحجاجي في هذه المدونة التراثية (البيان والتبيين)، وتعمل على توسيع مداه وتأصيله فيها . والشيء الثابت والمركزي في كتاب البيان والتبيين ، هو أنه يدور حول الفهم والإفهام ، بالوسائل المختلفة، و حتى مفهوم البيان عنده هو كل ما يهدف للتأثير والإقناع والاستمالة ، وتلك وظيفة إجرائية حجاجية يؤسس لها الدرس التداولي اليوم.

كما يعتبر التصنيف الذي قام به حازم القرطاجني فيما يتعلق بالكلام ،" كما كان كل كلام يحتمل الصدق أو الكذب إما أن يرد على جهة الإخبار أو الاقتصاص ، وإما أن يرد على جهة الاحتجاج والاستدلال "[1]قاعدة أساسية من قواعد الخطابة والكلام .

وما ينبغي التنبيه إليه هو أن مفهوم الحجاج والإقناع لا يتجسد في فني الخطابة والشعر وحدهما، فالنص القرآني كان في كثير من آياته ذا طبيعة حجاجية ، لاحتوائه حججا منطقية ووقائع جدلية بكثرة، فقد " سلك القرآن الكريم في محاجة الكافرين وأهل الكتاب سبيل العقل والوجدان (...) متخذا المشاهد الكونية والشواهد التاريخية والوقائع المألوفة براهين متنوعة تقنع وتسهل (...) ، ومن ثمة صاغ هذه البراهين في أساليب إخبارية وإنشائية وتقريرية وتصويرية ، فحاور وقطع بالرأي (...) ، فالفطرة حجة ، والتقليد حجة، المادة دليل ، والروح دليل(...) ، النفس في سموها وانحطاطها برهان .. " [2].

وبما أن القرآن خطاب يقتضي أنه إقناع وتأثير ، وذلك بفضل ما توفر فيه من آليات وعناصر أكسبته هذه الصفة الحجاجية ، وفي ذلك يقول عبد الله صولة :" لقد توافر في القرآن من المعطيات ما جعله خطابا حجاجيا وما جعل الحجاج يصيب كثيرا من العناصر اللغوية فيه مثل ، الكلمات والتراكيب والصور"[3] .

والأمثلة على الأساليب الحجاجية في القرآن الكريم هي كثيرة ومتنوعة، يكفينا شاهدا على ذلك قصة إبراهيم عليه السلام مع قومه في محاججتهم بالكوكب والقمر والشمس .

الخلاصة مما سبق ، أنه يمكن اعتبار جهود السابقين في مجال الدراسات البلاغية أنها ذات طابع حجاجي بالأساس، لاعتمادها على الفهم والإقناع، ثم أن مصطلح الحجاج عندهم قوامه الجدل والبرهان والإقناع والتصديق ...الخ . والأمر نفسه الذي ستنطلق منه – كما سنرى– البلاغة الجديدة .

---

[1] حازم القرطاجني : منهاج البلغاء وسراج الأدباء ، تونس ،د ط ، 1966 ، ص62.

[2] كامل علي سعفان :المنهج البياني في تفسير القرآن الكريم ، مكتبة الانغلو المصرية دط ،1918،ص 357

[3] عبد الله صولة : الحجاج في القرآن ، ص 46.

لقد احتل موضوع الحجاج مكانة خاصة في الأبحاث والكتابات الحديثة ، وصار موضوعا قائما بذاته في المرحلة الأخيرة وبالخصوص مع تطور البحوث البلاغية، وتعد المدرسة البلجيكية الرائد في هذا المجال ،أي الدراسات البلاغية والحجاجية في العصر الحديث، وهذا بفضل الجهود التي قدمها بلاغيوها ، من أمثال، (بيرلمان، وتيتيكا)، فلقد أسهمت بحوثهما في الكشف عن جوانب عميقة في الدرس البلاغي ،وذلك من خلال مؤلف (بيرلمان) **البلاغة الجديدة** والمؤلف الذي اشترك فيه الاثنان معا بعنوان ، " **دراسة الحجاج** " الذي درسا فيه التقنيات الحجاجية المؤدية بالأذهان إلى الإقناع والقبول، " التي من شأنها أن تؤدي بالأذهان إلى التسليم بالموضوعات المعروضة عليها، أو أن تزيد في درجة ذلك التسليم [1].

والحجاج عندهما يأخذ من الجدل التمشي الذي يقود إلى التأثير الذهني في المتلقي، وفي نظرهما أن الآخر (المحاجج) ليس خصما عنيدا أثناء عملية المحاججة ، بل موقفه موقف الشريك المحاور [2] .

وهما ينظران إلى الحجاج على أنه ضربان : ضرب موسوم **بالبلاغة البرهانية** " ، حيث يقوم على البرهنة والاستدلال، ويعتمد على العقل ، يخص الفلاسفة ، و يكون جمهوره ضيق ، غايته بيان الحق . وضرب أوسع من السابق ، يهتم بالتقنيات البيانية التي تؤثر في المتلقي، وغرضه إثارة الأهواء وتحريك العواطف " [3].

وأنجع الحجاج عندهما هو ما وفق في جعل عملية الإذعان تقوى لدى السامعين ، وتبعثهم على العمل بالمطلوب ، سواء بالإنجاز أو الإمساك .

---

[1]– perleman et tyteca .traite de l argumentation ..p:05.

[2] ينظر خليفة بوجادي المرجع السابق، ص:86.

[3] كامل علي سعفان :المنهج البياني في تفسير القرآن الكريم ،ص 357

وفي دراسة أخرى قام بها الباحثان : (ديكرو وأنسكومبر) ، وتعتبر رائدة في هذا المجال،إذ نقف على رؤية أخرى للحجاج فهو عندهما محصور في اللغة ودراستها ، دون الاهتمام بما هو خارج عن نطاقها ، فهو ـ إذن ـ حجاج لساني (لغوي) بحت، ونجد عند ديكرو ، ما يسمى بسلطة الخطاب الحجاجي ، لأنه في نظره يحرص على توجيه المتلقي وجهة واحدة، دون سواها ، وبهذا فاللغة في نظرهما حجاجية كلها .

ونشأ عند ديكرو بما يسمى **بالتداولية المدمجة** ،ومؤداها الاهتمام بدراسة وسائل الإقناع في الخطاب اللغوي الطبيعي، وركزت خصوصا على كيفية بناء الخطاب لحمل المخاطب على مشاطرة المخاطب رأيه ، أو التصرف وفقا لما يرضاه أو يتوخاه "[1].

ويؤكد ديكرو أن الاستعمال الإقناعي للغة ليس شيئا مضافا إلى اللغة ، بل انه موجود في نظامها الداخلي .

ومن الذين أولوا الحجاج عناية بالغة في أبحاثهم رولان بارت في كتابه **قراءة جديدة للبلاغة القديمة** ، إذ يرى أن البلاغة تراجعت واختزلت في نظرية الصياغة وفي جملة من الصور والزخارف والأساليب، وحسب رأيه أن هذا العمل جنى على البلاغة ، وعلى جانبها التداولي المرتبط بالإقناع ، يقول :" فالبلاغة ... فلسفة للتفكير وثقافة المجتمع ...، وأسلوبية الحوار ... ، فهي أداة محاججة ووسيلة تفكير، وتقنية للاقناع إضافة إلى كونها فن القول ، وجودة الحديث والكتابة فيما بعد[2]. ومثل هذا الرأي قد وقفنا عنده مع فلسفة افلاطون وموقفه من البلاغة .

---

[1] مجلة عالم الفكر (بتصرف) ، مرجع سابق ، ص :101.

[2] رولان بارت ، قراءة جديدة للبلاغة القديمة ، ترجمة عمر اوكان ، أفريقيا الشرق ، المغرب ،ط1 ،1994(المقدمة)

وحتى يكون الخطاب أكثر نجاعة ونجاحا في استمالة المتلقي يضيف (رولان بارت) إلى جانب فكرة ابتكار الحجج موضوع الترتيب ، أي ترتيب أجزاء الخطاب ، ويكون على النحو التالي : استهلال، سرد، إثبات ، خاتمة .

وكما يمكن اعتبار الكثير من أفعال القول – وفق ديكرو– أنها ذات وظيفة حجاجية لأنها تهدف إلى توجيه المتلقي إما بفعل شيء ما وإما بتركه ، ولهذا يطلق (ديكرو وانسكومبر) على هذا الحجاج الخطابي اسم : **الحجاج داخل اللغة** " ، و يمكن تسميته بمنطق الكلام ، أي تلك القواعد الداخلية للخطاب التي تتحكم في ترابطه وتسلسله "[1].

والحديث عن البلاغة الجديدة لم يكن محصورا في هذا اللفيف من الباحثين السالف ذكرهم فدائرة البحث فيه ذات مجال أوسع ، فهناك الباحث (جان ميشال آدام) الذي تكلم عن الخطاب الحجاجي ، وكذلك المفكر(آلان بواسينو) ، في كتابه **النصوص الحجاجية** ، والذي تبنى فيه كثيرا أراء زعيم النظرية الحجاجية (بيرلمان) ، معتبرا الحجاج مركز حوار بين المتلقين.

أما إسهامات المفكرين العرب المحدثين فيمكن اعتبار كتاب **اللسان والميزان والتكوثر العقلي** للباحث المغربي طه عبد الرحمان خير ممثل للنظرية الحجاجية في الدراسات البلاغية المعاصرة، والحجاج في رأيه صفة للخطابة ، يقول : " إن الأصل في تكوثر الخطابة هو صفته الحجاجية بناء على أنه لا خطاب بغير حجاج"[2]. وعملية المحاججة الصحيحة حسب ما ذهب إليه تقوم على أساسين أو قصدين اثنين وهما : الادعاء والاعتراض، " فالمدعي هو عبارة المخاطب الذي ينهض بواجب الاستدلال على قوله ..." والاعتراض هو :" عبارة المخاطب الذي ينهض بواجب المطالبة بالدليل على قول المدعي "[3].

---

[1]–ducrot Oswald– les echelles argmentatives editions de minuit paris 1989.p:12

[2] طه عبد الرحان :اللسان والميزان: المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء ، ط1 ، 1998، ص213.

[3] المرجع نفسه ، ص :225 .

وفي قراءتنا لكتابه السالف ذكره نجده يقدم تعريفا مميزا للحجاج ، فيربطه بفكرة الاعتراض يقول:" إذ حد الحجاج أنه كل منطوق به موجه إلى الغير لإفهامه دعوى مخصوصة يحق له الاعتراض عليها..."[1]. والحجاج عنده يمتاز بالتنوع والتصنيف باعتبار قصد المحاجج (بكسر الجيم)، ومن هذه الأنواع ما يلي :

- ***الحجاج التجريدي*** : هو الذي يعتني بترتيب صور العبارات بصرف النظر عن مضامينها

- ***الحجاج التوجيهي:*** وهو الطريقة التي يعتمدها في إيصال أدلته إلى غيره ومن خلالها يولي العناية إلى قصوده وأفعاله، بمعنى أن العناية تكون للمستدل الموجه ، أكثر من الاستدلال والمتلقي .

- **الحجاج التقويمي** : وهو أن يجعل مخاطبا وهميا للحوار معه، ويجعل من نفسه ذاتا ثانية ينزلها منزلة المعترض على دعواه ، أي يقوم بفعل الإلقاء والتلقي معا ، إلى جانب هذا توجد أنواع أخرى من الحجاج ، قد تكلم عنها الباحث محمد سالم محمد في كتابه **الحجاج في البلاغة العربية المعاصرة** على نحو الحجاج السلطوي، الحجاج الجماهيري، حجاج القوة ، والمحاجة بالتجهيل ...الخ[2].

[1] المرجع نفسه ، ص226.

[2] ينظر محمد سالم محمد، الحجاج في البلاغة المعاصرة، بحث في بلاغة النقد المعاصر ،بيروت لبنان ،ط1 2008 ، ص198.

ومن الذين تكلموا أيضا عن النظرية الحجاجية في فكرنا العربي المعاصر الباحث محمد العمري ، فهو من وسم الحجاج بالخطاب الاقناعي ، وذلك في كتابه: **في بلاغة الخطاب الاقناعي مدخل نظري وتطبيقي لدراسة الخطابة العربية** ، وهو في هذا المصنف يشير إلى عناصر الإقناع في البلاغة العربية القديمة ، التي جاءت على النحو التالي : المقام وصور الحجاج (القياس المثل ، الشاهد) وعنصر الأسلوب.

وأما كتابه ، **البلاغة العربية أصولها وامتدادها** ،الذي قدم فيه قراءة عن مفهوم البيان عند الجاحظ ، وقد تمت الإشارة إليه أثناء الحديث عن الحجاج في الفكر اللغوي العربي القديم[1]، وكذلك الباحث عبد الله صولة في مصنفه الهام ، و الذي يمكن الاعتداد به كثيرا في هذا المجال والموسوم بـ : **الحجاج في القرآن الكريم** .

[1] ينظر الصفحة 109، 110.

بعض البنيات الأسلوبية للخطاب الحجاجي في كتاب الإيضاح .

أول ما نقف عليه من ظواهر الحجاج للبلاغة العربية ، هو ما نجده في التعريفات المقدمة لها، فابن المقفع يجعل المحاججة وجها من أوجه البلاغة ، فعندما سئل ما البلاغة ؟ قال :"البلاغة اسم جامع لمعاني تجري في وجوه كثيرة فمنها ما يكون في السكوت ، ومنها ما يكون في الاستماع ، ومنها ما يكون في الإشارة ، ومنها ما يكون في الاحتجاج ، ومنها ما يكون جوابا "[1] .

وجاء في كتاب العمدة " وقيل لخالد بن صفوان: ما البلاغة ؟ ، قال : إصابة المعنى والقصد إلى الحجة ..." [2].

وفي حديث الجاحظ عن البلاغة نلمس حضورا قويا لجانب الإقناع والمحاججة وذلك في قوله :" وليس حفظك الله مضرة سلاطة اللسان عند المنازعة ، وسقطات الخطل يوم إطالة الخطبة بأعظم مما يحدث عن العي من اختلال الحجة "[3].

والناس يتدرجون في البلاغة والقدرة على المحاججة حتى يمكنهم تقبيح الجميل ، وتجميل القبيح ، و تصوير الباطل في صورة الحق.

إذن، فالحجاج البلاغي يتخذ من البلاغة مجالا له ، ويعدها آلية من الآليات التي يمكن المحاججة بها ، وذلك لاعتمادها عنصري الاستمالة والتأثير، ويتم هذا بفضل التقنيات والصور البيانية ، والأساليب الجمالية التي تروم إشباع الفكر والمشاعر معا ، " وهذه التقنيات هي

---

[1] الجاحظ :البيان والتبيين ،ص 1 /79.

[2] ابن رشيق : العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده، تح ،عبد القادر أحمد عطا ، دار الكتب العلمية بيروت 2001،ص247

[3] الجاحظ المرجع السابق ، ص15/1.

مطواعة حسب استعمال المرسل لها، إذ يختار حججه وطريقة بنائها بما يتناسب مع السياق الذي يحف بخطابه[1]، ومن هذه الآليات المتوسل بها في إنجاح عملية الاقناع والتأثير، ما يلي :

أ ـ الحجاج بالمجاز :

في الحقيقة أن الكلمة لا توصف بالمجاز إلا حين استعمالها في سياق نصي معين ، " لأن الكلمة قبل الاستعمال لا تسمى مجازا " [2] ، كالعبارة من قبيل : زرت البحر في قصره ، نجد فيها لفظة "البحر" هي الموصوفة بالمجاز، وأن استعمالها هو الذي حدد انتقالها من معناها الأصلي إلى معنى آخر، ومن المسلم به لدى البلاغيين أن المجاز أبلغ من الحقيقة ، " فمزية أجناس المجاز كامنة في طريقة تقديم المعنى وكونه زيد في إثباته تأكيدا وتشديدا وقوة ..." [3].

وعندما يتعلق الأمر بالإثبات أو النفي أو التأكيد فهو إذا – يؤدي وظيفة حجاجية ، والمتكلم يصبح هنا في مقام إرسال دعوى يدعيها ، ويريد تثبيتها في عقل المخاطب وترسيخها في نفسه ، وتتضح هذه الوظيفة الحجاجية للمجاز أكثر في كلام السكاكي:" من أتقن أصلا واحدا من علم البيان كأصل التشبيه أو الكناية أو الاستعارة (...) أطلعه ذلك على كيفية الدليل" [4].

والظاهر أن الأمر هنا متعلق بكيفية توظيف وجوه البيان والقدرة على جريانه في سياق تخاطبي معين، حتى يؤدي وظيفته الحجاجية ، وحسب رأي السكاكي ،أن مستعمل وجوه البيان يسلك مسلك صاحب الاستدلال ، ولا يمكن الفصل بينهما، لأن البيان هو إدعاء أيضا إذ يقول: " إلزام شيء يستلزم شيئا فيتوصل بذلك إلى الإثبات أو يعاند فيتوصل بذلك إلى

---

[1] بن الظافر الشهري ،استرتيجية الخطاب ، ص 477.

[2] الإيضاح ، ص:274.

[3] الجرجاني : دلائل الإعجاز،ص 96/95.

[4] السكاكي : مفتاح العلوم ص 435.

النفي .."[1]. وما يجب التنبيه إليه والانتباه له في هذا المقام ، هو أن الاستدلال البياني أو المجازي اشد تأثيرا من غيره من الاستدلالات الأخرى ،" باعتبار أن المجاز أبلغ من الحقيقة ، والاستعارة أقوى من التصريح بالتشبيه ، وأن الكناية أوقع من الإفصاح بالذكر "[2].

ويمكن أن نضيف إلى هذا ، أنه عندما نتوسل وجوه البيان أثناء المخاطبة ، نكون قد راعينا إلى جانب عقول السامعين نفوسهم وانفعالاتهم ومتخيلاهم، ولهذا نجد البلاغيين القدامى عندما تحدثوا عن شدة تأثير وجوه البيان في المتلقي قد ركزوا على القلب والنفس أكثر من حديثهم عن العقل، وفي هذا يقول عبد القاهر الجرجاني عن الصورة التشبيهية :" كانت إلى النفوس أعجب، وكانت النفوس لها أطرب وكان مكانها إلى أن تحدث الأريحية أقرب"[3].

ويتأكد لنا هذا الكلام أكثر عندما ننظر في كلام السكاكي :" أن ميل النفس إلى الحسيات أتم منه إلى العقليات[4]، وهذا ماقصده القزويني عندما قال: وتمكين المعنى في القلب "[5] .

والحقيقة أن الإشارات تعلق المجاز بالنفس وقوة التأثير فيها كثيرة، ولا شك أن الذي يجيد استعمال اللغة بفنونها يبلغ مراده من السامع ، " فخير الكلام ما كان معناه إلى قلبك أسبق من لفظه إلى سمعك .."[6].

---

[1] المرجع السابق. ص 505.

[2] ينظر الإيضاح، ص 340 ، ومفتاح العلوم، ص412.

[3] الجرجاني . أسرار البلاغة ، ص117.

[4] مفتاح العلوم ، .ص341.

[5] الإيضاح . ص221..

[6] أسرار البلاغة ، ص108، 122.

-الحجاج بالتمثيل (التشبيه).

يكون التشبيه ابلغ إذا وفق المتكلم في اختبار صوره و فقا لطبيعة المقام ، " واعلم أن مما اتفق العقلاء عليه أن التمثيل إذا جاء في أعقاب المعاني كساها أبهة ... وضاعف قواها في تحريك النفوس ودعا القلوب إليها .." [1].

وبعد تصفحنا لكتاب الإيضاح وجدنا إشارات ذات مفاهيم حجاجية بالأساس، بدءا بالتعريف الذي قدمه القزويني لصورة التشبيه ، قائلا :" فاعلم أنه مما اتفق العقلاء على شرف قدره، وفخامة أمره في فن البلاغة ، وان تعقيب المعاني به يضاعف قواها في تحريك النفوس إلى المقصود بها مدحا أو ذما"[2]، وهو بتعريفه هذا لا يخرج عن كلام شيخه الجرجاني في شيء، فكلا التعريفين يعززان البعد الحجاجي للصورة التشبيهية، فالمعاني تستقر في النفوس، وبعدها يتم قبولها ، وفي الأخير تتحرك إلى مقصودها .

وتبرز لنا الوظيفة الحجاجية للتمثيل أكثر، مع المثال الذي قدمه القزويني ، " ومن الدليل على أن للإحساس من التحريك للنفس وتمكين المعنى أنك إذا كنت أنت وصاحب لك يسعى في أمره على طرف نهر، وأنت تريد أن تقول له : أنه لا يحصل من سعيه على طائل، فأدخلت يدك في الماء ثم قلت : أنظر هل حصل في كفي من ماء شيء ؟ فكذلك أنت في أمرك، كان لذلك ضرب **من التأثير في النفس وتمكين المعنى في القلب**"[3] .

---

[1] أسرار البلاغة ، ص ،93/92.

[2] الإيضاح ، .ص 218.

[3] الإيضاح ، ص220 /221.

فلا يخفى على أحد ما لهذه الصورة من تأثير بالغ، فالمتكلم اهتدى إلى التعبير بالتصوير والتخييل مستهدفا المخاطب عقله وقلبه معا، والمعنى الذي يريد إيصاله إلى المخاطب هو الخيبة في السعي وهذا المعنى يكون أقرب إلى القبول وأدعى إلى التأثير عندما يكون مصحوبا بالدليل ، وقد مثله في هذا المقام حال الذي يريد أن يمسك الماء ، والجامع بينهما هو استحالة تحقيق النتيجة، والمسار الحجاجي الذي يمكن أن نحلل به هذا الشاهد هو كالتالي :

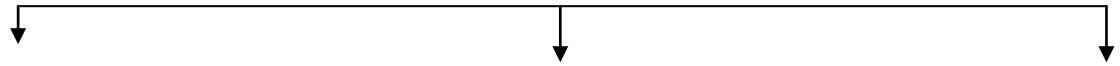

المقدمة الأولى	المقدمة الثانية	النتيجة
(رجل يسعى في أمره)	(رجل يمسك الماء)	(الاستحالة)

فالاستعانة بالتمثيل هنا ، جاء بمثابة تقنية حجاجية لها فاعلية في محاولة الإقناع، وذلك عن طريق إثارة المتلقي، وتشغيل فكره بالبحث عن العلاقة الجامعة بين طرفي التشبيه (المشبه والمشبه به) .

وفي مثال أخر ساقه القزويني –والأمثلة كثيرة – قول البحتري [1]:

دان علـــى أيـدي العفاة وشاسـع عن كـل ندّ في الندى وضـريب

كالبـدر أفرط في العلو وضـــوؤه للعصبـة الساريـن جدّ قريـــب

فالمكون الحجاجي هنا يبدو في التحول بالخطاب من مجرد إبلاغ رسالة لسانية عن الممدوح بأنه ذو فضل على الناس، إلى مادة فنية تتمتع بها النفوس ، وتتحرك لقبولها ، " لأن المعنى يكون مقنعا ولكنه يحتاج إلى جمال يوشيه ويحفظ له رونقه ويدعم فعله [2]".

[1] الإيضاح، ص 218.

[2] سامية الدريدي : المرجع السابق .ص:122.

فجوهر الحسن والطلاوة ، وإلصاق المعنى بالصدور يحصل بضرب الأمثلة ، وفي ذلك يقول السيوطي: " فبحسن اللفظ واختلافها على المعنى الواحد ترصّع المعاني في القلوب وتلتصق بالصدور ، ويزيد حسنه وحلاوته بضرب الأمثلة والتشبيهات المجازية "[1].

وقد يتوسل ببعض التمثيل لتحقيق نوع من المبالغة في المعنى التي يراد ترسيخها لدى المتلقي وإشعاره بقوة الحدث وعظم شأنه، والقيمة الحجاجية للخطاب تكمن في الهدف الذي يريد أن يصل إليه المرسل ، مما يدفع به إلى اختيار الطرق التي تمكنه من ذلك، فالشاعر فيما سبق يريد أن يقنع الأخر بأن ممدوحة أفضل من الناس ويجب تعظيمه.

وللتأكيد على نجاعة الطرق الحجاجية وإظهار نتائجها يمكن عرض قول القزويني :" ما يحصل للنفس من الأنس بإخراجها من خفي إلى جلي، كالانتقال مما يحصل لها بالفكرة إلى ما يعلم بالفطرة (...) وكالانتقال من المعقول إلى المحسوس"[2].

ويكون هذا عن طريق ما توحي به تلك الصور المدركة بالحواس من خيالات في ذهن المتلقي لأنها أصبحت عن طريق التمثيل حقيقة يستطيع أن يراها ويسمعها ويلمسها ولا سبيل إلى إنكارها أو الشك فيها .

والتحليل الحجاجي للصور التشبيهية التي اخترناها من الكتاب والتي يمكن بسطها على النحو التالي:

- **المشبه**، يمكن عده مقدمات (معطاة) .
- **المشبه به**، عبارة عن استدلالات وحجج.
- **النتيجة**، هي الإقناع بالفكرة أو دحضها (استجابة المتلقي) .

---

[1] السيوطي : المزهر في علوم اللغة ، ج1 ، ،ص38 .

[2] الإيضاح، ص ، 220.

وتقريب الصورة (صورة الموصوف) من ذهن المتلقي هي وظيفة حجاجية يضطلع بها التشبيه باعتبار الطرف الثاني (المشبه به) حجة على الطرف الأول (المشبه)، وخاصة مع صورة التشبيه الضمني الذي يظهر فيه المكون الحجاجي بصورة أقوى، وفي ذلك تقول الباحثة سامية الدريدي :" فمأتى الحجاج في التشبيه الضمني أنه قياس خطابي على مقدمات ويفضي إلى نتيجة "[1]. والمثال الذي قدمه القزويني في هذا الباب هو قول المتنبي :

فإن تفق الأنام وأنت منهـــم فإن المسك بعض دم الغـــزال

فالأوصاف الفاضلة والمميزة في ممدوحه والتي فاق بها غيره جعلته فردا غريبا، بل هو ادعاء يحتاج إلى إثبات جواز وجوده ، لهذا جاء بالاستدلال (المشبه به) في الشطر الثاني إثباتا لصحة المقدمة ، وهي إدعاء تلك الصفات في الممدوح، ويقول القزويني :"فإن المسلك بعض دم الغزال، أي ولا يعد في الماء لما فيه من الأوصاف الشريفة التي لا يوجد شيء منها في الدم وخلوه من الأوصاف التي لها كان الدم، **فأبان أن لما أدعاه أصلا في الوجود على الجملة ...**" [2].

وفكرة الادعاء التي يتحدث عنها هنا هي أحد الأسس التي يقوم عليها الحجاج ، وقد سلف ذكر هذا مع الباحث طه عبد الرحمان [3]، ومنه يمكن القول ، أن كلام القزويني قد تضمن المكون الحجاجي بجميع عناصره، فالخطاب: **فإن المسك بعض دم الغزال** ، هو حجة ثابتة ودليل على دعوى المتكلم ، يفضي إلى نتيجة قد تضمنها قول القزويني: **فأبان لما أدعاه أصلا في الوجود.**

---

[1] سامية الدريدي : الحجاج في الشعر القديم ،ص261.

[2] الإيضاح ..ص :240-241.

[3] ينظر الصفحة 114 ،115من هذا الفصل.

نعود إلى معنى البيت لنقول : إن مثل هذه الأمور الغريبة التي أدعاها في الممدوح من الصعب التسليم بها وقبولها هكذا من دون التدليل عليها، المتنبي وهنا عمد إلى الحجاج لإثبات هذه الدعوى، والمتمثلة في أنه فرد منفرد عن جنسه وفاقه حتى أصبح جنسا بنفسه، وهذا الشيء هو المسك الذي أصله دم الغزال ، والادعاء معناه دخول المشبه في جنس المشبه به ـ إذن ــ وبفضل هذا التشبيه نقول: أن الأمر المستغرب فيه قد زالت غرابته ، وبالتالي تمت الفائدة من الخطاب وهي النفاذ إلى عوالم المتلقي الفكرية والشعورية .

ومن الإشارات إلى حضور الخطاب الحجاجي في مدونة الإيضاح ما حكاه القزويني عن ذلك الرجل الأعرابي الذي وقف على حلقة الحسن فقال :" رحم الله من تصدق من فضل أو آسى من كفاف أو آثر من قوت .." ، فقال الحسن : ما ترك لأحد عذرا، فكأنه كان **يحاجج** ويحاول **إقناع** الحضور بحاله ، فجاء مستوفيا كل حالات المجتمع من فضل ومن كفاف ومن قوت..."[1]، فذكر المرسل حجة كليا في أول الأمر ، ثم يعود إلى تعداد أجزائها، فيصبح كل جزء منها بمثابة دليل على دعواه [2]، وهو في حكاية الأعرابي مع الحسن ، نجد أنه قام بطرح قضية عامة ، تمثلت في السعي **لنيل رحمة الله**، ثم توسع في هذه القضية أو الأطروحة بعرض جملة من الحجج ، وكل واحدة منها تخدم القضية العامة **(رحمة الله)**، وهذا التوسع والشمول هو أحد اتجاهات الحجاج عند الدارسين المعاصرين ، وتقسيم الكل إلى أجزائه هو نوع من الحجاج يدعى التفريع أو التقسيم، وقد أشار إليه كل من ديكرو واسكومبر في حديثهما عن الحجاج داخل اللغة :"ويمكن تسميته بمنطق الكلام أي تلك القواعد الداخلية للخطاب التي تتحكم في ترابطه وتسلسله "[3]

---

[1] الإيضاح ، ص205.

[2] بن الظافر الشهري ، المرجع السابق،ص449.

[3]–Ducrot osward .les echelles argumentative.editions de uimint paris1989 p :12.

النتيجة، أن قيمة التشبيه لا تنحصر في العلاقة بين طرفيه ولا يؤتى به من قبيل الزخرفة والتحسين وإنما جيء به ليزيد المعنى وضوحا ، فيتمكن من قلب السامع، وهذا ما جاء به الدرس التداولي الحجاجي المعاصر، فنشأ عند ديكرو ما يسمى بالتداولية المدمجة، التي اهتمت بدراسة وسائل الإقناع في الخطاب اللغوي وركزت خصوصا على كيفية بناء الخطاب لحمل المخاطب على مشاطرة المخاطب رأيه "[1].

- الحجـــــــاج بالاستعارة.

الاستعارة هي ضرب من التشبيه ونمط من التمثيل، والتشبيه قياس، والقياس يجري فيما تعيه القلوب وتدركه العقول وتستفي فيه الأفهام والأذهان، لا الأسماع والآذان "[2] .

فهي بهذا ليست حلية اللفظ وزينة الكلام، بل هي مكون وبنية تقصد تحقيق المعنى وبلوغه العقل والنفس معا .

وبالعودة إلى تراثنا نجد إشارات واضحة ودالة على حضور القول الاستعاري ووظيفته الحجاجية في كتاب الإيضاح، من ذلك ما قاله القزويني:" أطبق البلغاء على أن المجاز أبلغ من الحقيقة وأن الاستعارة أبلغ من التمثيل لا على سبيل الاستعارة "[3] .

يدلنا هذا الكلام على أن الاستعارة من أحسن وسائل التبليغ ، وذلك بالنظر إلى الطاقة الحجاجية التي توفرها للمتكلم من أجل التأثير في المتلقي ، " والقول الاستعاري يتميز عن القول الحرفي في الحجاج ، بكونه يؤدي عدة وظائف في عملية التخاطب وعمليتي الفهم والتأويل بين المتكلم والسامع، ولذا فإن القول الاستعاري يعد آلية حجاجية بامتياز"[4].

---

[1] مجلة عالم الفكر، المرجع السابق .ص101.

[2] الجرجاني : أسرار البلاغة ، ص20.

[3] الإيضاح ، .ص 340.

[4] عبد السلام عشير: عندما نتواصل نغير، ص120.

وقد تنبه القزويني مبكرا إلى أفضلية القول الاستعاري ، عندما قال:" فليست فضيلة قولنا : رأيت أسدا على قولنا : رأيت رجلا هو والأسد سواء في الشجاعة (...) إنما الأول أفاد **تأكيدا لإثبات المعنى** لم يفدها الثاني ... وإثبات المعني به **كدعوى الشيء بينة** ،ولا شك أن دعوى الشيء ببينه أبلغ في إثباته من دعواه بلا بينه "[1]، وهذا المفهوم حول الاستعارة هو مفهوم متقدم عما أقره (بيرلمان وتيتيكا) في إشارتهما أن كل دراسة لمجموع الحجاج لا بدّ أن تأخذ بعين الاعتبار أن الاستعارة والتمثيل من عناصر الحجّة، ويرى بيرلمان :" أن أي تصور للاستعارة لا يلقي الضوء على أهميتها في الحجاج لا يمكن أن يحظى بقبولنا" [2].

وبالنظر إلى عبارات القزويني الواردة في نصه من قبيل: (الاستعارة أبلغ، إثبات المعنى ، دعوى الشيء ببينه ...) لاشك أنه انحياز صريح إلى الجانب الحجاجي الإقناعي الكامن في القول الاستعاري، وربما عدت الاستعارة أبلغ من التشبيه لأن صورة التشبيه مكونة من عنصرين حجاجيين ظاهرين (المشبه والمشبه به) ، ويمكن وصفهما مقدمتين يفضيان إلى نتيجة ، وتبقى نسبة المطابقة بينهما غير يقينية في تقدير المتلقي، بينما في القول الاستعاري يعتمد على مقدمة واحدة كأنها يقينية ، وأن نسبة المطابقة بينهما كاملة ، فاستعارة لفظ الأسد للرجل ، أنه أفاد المبالغة في الوصف المقصود بالشجاعة ، وإيقاع في نفس المتلقي صورة الأسد في بطشه وقوته [3].

---

[1] الايضاح ،ص 341/340.

[2]– Pereleman ;Traite de l argumentation . p 35.

[3] الإيضاح ، ص 241.

وحسب رأي الباحث (أبو بكر العزاوي) أنه يمكن ربط القول الاستعاري بالسلم الحجاجي ، وأن الأقوال الاستعارية أعلى وأقوى حجاجيا من الأقوال العادية " [1].

وعلى هذا الأساس يمكن لنا تحليل الصور الاستعارية تحليلا حجاجيا ، كتلك التي جاءت في كتاب الإيضاح :" **كلما سمع هيعة طار إليها** ، وحسب تعليق القزويني على هذا الأسلوب : أن الطيران والعدو يشتركان في أمر داخل في مفهومها ، وهو قطع المسافة بسرعة ... ولكن الطيران أسرع من العدو ..." [2].

ويمكن أن نمثل لهذه الاستعارة بواسطة السلم الحجاجي التالي :

ن ← الوصول بسرعة

ق 2 ← سمع هيعة طار اليها (قول استعاري)

ق1 ← سمع هيعة أسرع إليها (قول عاد)

والملاحظ على هذا الترتيب في السلم الحجاجي أن القول العادي (ق1) ورد في شكل كلام صريح، وبالتالي فهو أضعف حجاجيا من الكلام المجازي البلاغي الذي يمثله القول الاستعاري (ق2) الوارد في أعلى السلم ، والأقرب إلى النتيجة التي مفادها ، **السرعة الفائقة** .

وبلغة رياضية أخرى يمكن أن نجمل هذا الكلام في شكل معادلة حسابية مقتضاها

أ ـ سماع هيعة + الطيران = سرعة أقوى

ب ـ سماع هيعة + العدو = سرعة أقل

[1] ابو بكر العزاوي : اللغة والحجاج ،ص 102.

[2] الإيضاح ،ص297.

يتضح أن النتيجة في القول (أ) أفضل من منه في القول (ب) ، وهو مجموع في قول القزويني: **ولكن الطيران أسرع من العدو.**

يترتب على هذا أن كلام القزويني في الجملة السابقة يمثل نتيجة للمقدمتين المختلفتين (أ . ب) ، وأن المعنى بهذا أصبح ثابتا ومؤكدا في ذهن المتلقي ، وذلك عندما كان مؤيدا بدليل (القول الاستعاري) وعرض الدعاوى بهذه الكيفية عبر سلسلة من الأقوال هو منحى حجاجي مؤسس له في الدرس التداولي المعاصر.

ومثل هذا التحليل يمكن سحبه على جميع الأمثلة المتعلقة بالاستعارات الواردة بكثرة في كتاب الإيضاح.

الخلاصة، أنه يمكن أن نعتبر الأقوال الاستعارية آلية بلاغية أقوى حجاجيا من الأقوال العادية يتوسلها المتكلم في محاولة إقناع مخاطبية، فمنتج الخطاب يسعى للتعليل والبرهنة عن طريق المبالغة أو الإدعاء لكي يرغم المتلقي على الإقناع والتأثير، والاستعارة لا يقصد بها مجرد نقل لفظ عما وضع له ، بل المقصود منها المبالغة في الوصف، وتحصل المبالغة بإدعاء المتكلم في المعنى [1]، ويقول عنها الباحث ابن الظافر الشهري:" هي وسيلة هامة من وسائل التأثير والحجاج، لما لها من قدرة في التصوير ... فهي تعد من أبلغ الصور وأقوى الآليات البلاغية حجاجيا[2] .

[1] عبد الرحمان الحاج صالح : الخطاب والتخاطب في نظرية الوضع والاستعمال العربية ، المؤسسة الوطنية للفنون المطبعية ، الرغاية الجزائر ، 2012،ص 241

[2] ينظر عبد الهادي بن الظافر الشهري ، استراتيجيات الخطاب (المرجع السابق)،ص 496.

- **الحجاج بالكناية .**

تعد الكناية من أهم أنواع الحجاج ، فالمتكلم عندما يريد إثبات معنى من المعاني يعدل عن التصريح باللفظ الموضوع له في اللغة ، ويلجأ إلى :" معنى هو تاليه وردفه في الوجود فيومئ به إليه ويجعله دليلا عليه" [1].

ووجه الحجاج في القول الكنائي يكمن في الرمز الذي ينشئه المتكلم المحاجج بهدف التأثير في المتلقي، الذي يوجه إليه الخطاب المجازي، وعلى قدر استجابة هذا الأخير تبرز القيمة الحجاجية والقدرة الإقناعية للصورة الكنائية، لأنه يؤتى بها كدليل قوي على قصد المتكلم في إثبات المعاني والصفات ، والتأكيد عليها، ولهذا المعنى أشار القزويني بقوله :" **فأفاد إثبات** الصفات المذكورة له بطريق الكناية "[2].

وتبرز لنا قوتها عندما تكون عن طريق المبالغة : " كقولهم : "مثلك لا يبخل" ، قال الزمخشري: نفوا البخل عن مثله وهم يريدون نفيه عن ذاته، قصدوا المبالغة في ذلك، فسلكوا به طريق الكناية " [3].

والقوة الحجاجية في الأسلوب الكنائي متفاوتة ، وذلك بحسب الخطاب المجازي المحاجج به، ويترتب عليه تفاوت في درجة الإقناع وتحريك آلية الفهم والتأويل لدى المتلقي.

---

[1] الجرجاني : دلائل الإعجاز،ص66.

[2] الإيضاح ، ،ص336.

[3] م ن ، ص137.

ووجدنا في كتاب الإيضاح ما يتوافق مع هذا الطرح ، يمثله قول القزويني نقلا عن السكاكي :" وقال السكاكي الكناية تتفاوت إلى تعريض وتلويح ورمز وإيماء وإشارة (...) وأن الكناية أبلغ من الإفصاح بالذكر[1] .

والكناية هي من الظواهر الكلامية الخطابية التي تلزم معنى آخر، والمعبر عنه عند القدامى **بمعنى المعنى**، وعند التداوليين المحدثين بالاقتضاء أو الاستلزام، وفي كتاب الإيضاح أمثلة كثيرة ، قدمها القزويني في شأن الكناية ، تتضمن قيما تداوليا وطاقة حجاجية، من ذلك قولهم كناية عن الأبله : عريض الوسادة (...) فإنه ينقل من عرض الوسادة إلى عرض القفا ومنه إلى المقصود[2] .

ولا بأس أن نمثل هذا الكلام وفق السلم الحجاجي – على سنة الباحث العزاوي – وبالكيفية السابقة ، نحو.

ن ← فلان غبي (نتيجة)

م2 ← فلان عريضة القفا.

م1 ← فلان عريض الوسادة.

الملاحظ على هذا الكلام أنه يحوي مقدمتين اثنتين يمكن عدهما حججا أولية تفضي إلى نتيجة مفادها هنا هو إثبات صفة الغباء، وتعتبر هذه النتيجة قصد المتكلم وهدفه منذ البداية، ولكي يرسلها من موقع المؤثر على المتلقي اختار لها صورة محسوسة ، وهو **عرض الوسادة** .

---

[1] الإيضاح ، ص.339-340.

[2] م ن ، ص332.

ولتعزيز البعد الحجاجي أكثر في بلاغة القزويني، نسوق مثالا أخر يقول:"...وكقولهم كثير الرماد، كناية عن المضياف، فإنه ينتقل من كثرة الرماد إلى كثرة إحراق الحطب تحت القدور ومنها إلى كثرة الطبائخ، ومنها إلى كثرة الأكلة ومنها إلى كثرة الضيفان ومنها إلى المقصود "[1].

فما يستخلص من تعليق القزويني على الصورة الكنائية (كثير الرماد)، أنه يشتمل على سلسلة من الأقوال ورد تتابعها في شكل متنام وتدريجي، ويمكن عدها حججا وأدلة تؤدي في مجملها إلى نتيجة ممثلة في لفظة (الضيفان) ، لكن أثناء التلفظ بالقول الكنائي **فلان كثير الرماد** ، نكون قد اختزلنا تلك المتوالية من الجمل والخطابات من قبيل (كثرة إحراق الحطب كثرة الطبائخ ،كثرة الأكلة)، وفي هذه الحال أن المتلقي أو القارئ هو من يدرك هذه العلائق والقواعد بين هذه السلسلة الكلامية، وبها نكون قد قمنا باستثارة عقله وفكره من أجل فهم المقصود العام من التواصل، وهذه وظيفة حجاجية بامتياز، قد اضطلعت بها هذه الصورة البلاغية، ويمكن ترجمة هذه المتواليات القولية ونتائجها بحسب الإستراتيجية المتبعة من قبل القزويني على شكل رسم بياني ، تباعا للخطاطات السابقة :

[1] الإيضاح ....ص 333.

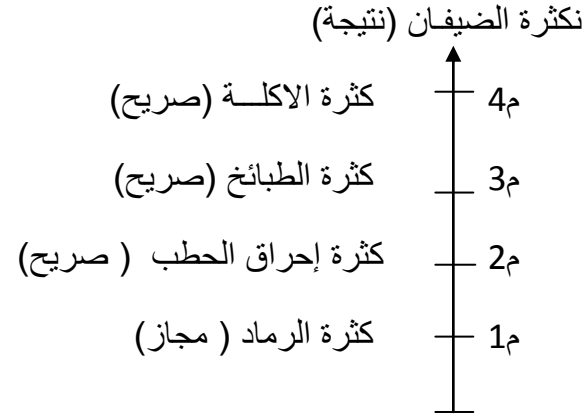

إضافة إلى هذا التحليل الحجاجي لنص القزويني، يستحسن ان ننبه الى مؤشر حجاجي أخر مؤداه : تلك القواعد الداخلية لهذا الخطاب (قد سبقت الإشارة إليها مع ديكرو)، وهو الترتيب المنطقي لهذه المتواليات الجملية، فكثرة الرماد هو نتيجة لمقدمة قبلها ، تمثلها جملة **كثرة إحراق الحطب**، وهي بدورها مؤشر على كثرة الطبائخ التي تأتي بعدها ، ومنه كثرة الأكلة، وتحليل القزويني للخطاب اللغوي السابق وبهذه الكيفية الإجرائية من قبيل ذكر الأسباب والنتائج واختيار الإستراتيجيات الاستدلالية المناسبة ، كان من أجل تحقيق المقصود، وهو استماله المخاطب ومحاولة إقناعه ، وهذه الالتفاتة هي قيمة حجاجية مضافة لها خطورتها في الدرس اللغوي قديما حديثا .

- **الحـــجـــاج ببعض البنيات البديعية .**

إن الوظيفة الأساسية التي يضطلع بها علم البديع هي تزيين اللفظ وتجميله، وكذا تقوية المعنى وإيضاحه، يقول القزويني في ذلك:" هو علم يعرف به وجوه تحسين الكلام بعد رعاية تطبيقه على مقتضى الحال ووضوح الدلالة ... وهذه الوجوه ضربان : ضرب يرجع إلى المعنى وضرب يرجع إلى اللفظ ..."[1].

فالمتكلم عندما يرسل خطابا ويكون قد حسنه وراعى فيه أحوال المخاطبين، وتوخى فيه وضوح الدلالة والمقصد ، إنما يكون بذلك قد استهدف عقل مخاطبة وفكره ، وكذا نفسه ومشاعره وهنا تكمن القيمة الحجاجية لهذا العلم، لأنه متى كان الكلام واضحا في ذهن المتلقي كان أدعى للقبول والإقناع، وكلما ألبسه صاحبه أبهة وجمالا ، كان له الوقع السحري والحسن على النفس.

وقد جاء في كتاب " اللغة والحجاج للباحث المغربي (أبو بكر العزاوي) ، أن دراسة الحجاج في مستوى اللغة ، قد انطلقنا فيه ـ حسب تعبيره ـ من فكرة شائعة مفادها ، أننا نتكلم عامة بقصد التأثير والإقناع، والإنسان عندما يتكلم فإنه يمارس سلطة على الأخر،[2] ويدعم هذا المفهوم الباحث صابر الحباشة في حديثه عن حجاجية البديع قائلا:" إن محسنا لهو حجاجي إذا كان استعماله وهو يؤدي دوره في تغيير زاوية النظر (...) وعلى العكس من ذلك فإذا لم ينتج عن الخطاب استمالة المخاطب فإن المحسن سيتم إدراكه باعتباره زخرفة[3] ".

---

[1] الإيضاح ، ص:348.

[2] ينظر حوار حول الحجاج، أبو بكر العزاوي ، الاحمدية للنشر الدار البيضاء،ط1،200، ص35، 36.

[3] صابر الحبارشة : التداولية والحجاج ،ص 51.

ومنه نخلص إلى أن القيمة الجمالية في البديع تخص المعنى وتخص الأسلوب معا فكلاهما وسيلة من وسائل التواصل والإبلاغ ، ومن غير الممكن أن تتحقق العملية التواصلية والابلاغية بكلام لم تتوفر فيه خاصيتي الوضوح والحسن .

ومما جاء في كتاب الإيضاح حول هذا المكون البلاغي الحجاجي ، يمثله قول القزويني :"ومن لطيف الطباق قول الفرزدق :

لعن الإله بني كليب إنهم لا يغدرون ولا يفون لجـار

ويذهب في تعليقه على هذا البيت قائلا : وفي البيت تكميل حسن إذ لو اقتصر على قوله : **لا يغدرون** لاحتمل الكلام ضربا من المدح، لأن تجنب الغدر قد يكون عن عفة، فقال **ولا يفون** ليفيد أنه للعجز، كما أن ترك الوفاء للؤم"[1]، فالتقابل الحاصل في البيت هو بين معنيين أساسيين وهما : نفي صفة العفة عن بني كليب، وإثبات صفة العجز فيهم ، والدفاع عن فكرة ودحض أخرى هو جوهر النظرية الحجاجية بالأساس.

ويمكن تمثيل هذا على النحو التالي:

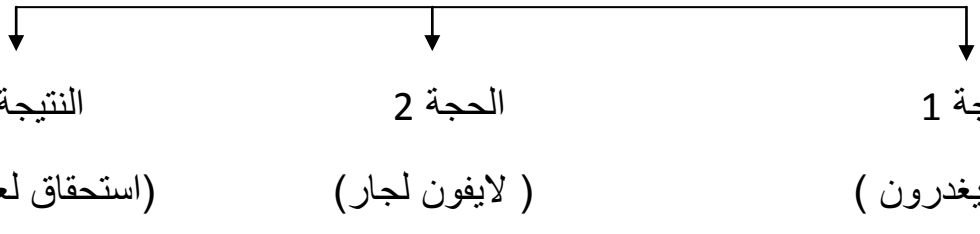

[1] – الإيضاح ، .ص 350.

والتوسل بمثل هذه الآليات يكون على سبيل الدفع إلى نتائج معينة في التخاطب، تجعلنا نجزم بأن الفعالية الحجاجية كامنة في مثل هذه المهارات الأسلوبية، بل تعد من أهم العوامل التي تبرز في ضوئها الطاقة الحجاجية وتعطي الكلام صفة القوة ، وبالتالي صفة النجاعة .

ويمكن لنا أن نعزز هذا الكلام بنموذج آخر قدمه القزويني، وفيه تبرز الطاقة الحجاجية بشكل أوضح إذ يقول :"... ومن لطيف المقابلة ما حكي عن محمد بن عمران التيمي، إذ قال له المنصور : بلغني أنك بخيل، فقال: **يا أمير المؤمنين ما أجمد في حق ، ولا أذوب فيباطل** "[1]، فبقليل من التأمل في هذا النص ندرك أنه اشتمل على عناصر حجاجية بارزة ممثلة في أن المدعى عليه (المخاطب) تمكن من إبطال الدعوى التي كانت في حقه ، وهي صفة البخل ، متوسلا في ذلك تقنية خطابية بلاغية، ألا وهي **المقابلة** .

ولا شك في أن هذا التقابل بين المعنيين المتضادين وما بينهما من تناسب ، قد استطاع أن يؤثر به على المدعي (أمير المؤمنين)، ويجعله يعدل عن رأيه، وهي نتيجة عامة مضمرة لم نلمحها في الخطاب، ولكن دلت عليها قرينة السياق ، ومن لطائف هذه المقابلة أنها ردت على **الادعاء** الحاصل في صفة البخل ، وتجاوزته إلى الرد على إدعاء خفي غير ظاهر وهو الإسراف ، وذلك في قوله : **ولا أذوب في باطل**، علما أن أمير المؤمنين لم يدع عليه صفة الإسراف، ولكن المخاطب أتى به من باب سد المنافذ ، وإقامة الحجة على خصمه، كما توحي بذلك ملابسات السياق.

[1] الإيضاح . ص: 355.

وما يقال عن فضيلة الطباق والمقابلة في الكشف عن المعاني وتجلياتها يمكن قوله عن التورية ، لأن حجاجية هذا المحسن المعنوي منصبة على المعنى وكيفية الوصول إليه واكتشافه من قبل المتلقي، والخطاب الذي يكون به هذا المحسن يكون المعنى فيه غامضا ومورّى ، ولكن بعد إدراك معناه تزداد درجة قبوله وثبوته في ذهن المتلقي، وبالتالي نحن أمام إضافة قيمية حجاجية ، قد تركتها هذه الآلية البديعية .

ولا نغفل عن الشق الثاني من المحسنات البديعية ، والموسوم بالمحسنات اللفظية، والمزية فيها أنها تكسب الكلام جرسا عذبا، وإيقاعا لطيفا، تصغي له الأذن وتستأنسه، وترتاح له النفس وتستعذبه ، ومنه قبوله، وفي هذا تقول الباحثة الدريدي :" فيمكن اعتبار الموسيقى رافدا من روافد الحجاج، من جهة استيلاء ما وقع على النفوس وامتلاك الأنغام للأسماع، وما كان أملك للسمع كان أفعل باللب وبالنفس "[1].

ومما يدل على عناية القزويني بآليات البديع هو إفراده الجزء الأخير من الكتاب للحديث عن هذا النوع ، مسميا إياه **بعلم البديع**، وفيه تناول جميع المحسنات بنوعيها: المعنوية واللفظية ، وبأمثلة كثيرة ومتنوعة، وأثناء تفحصنا لها وقفنا على إشارات عديدة منه إلى أن هذه الآليات البلاغية لم يؤت بها على سبيل الصنعة والزخرفة ، وإنما حسنها في مدى تمكنها من نفس المتلقي ، ومحاولة إفهامه، وتوضيح المعنى له، فيقول عن فضل الجناس مثلا :" ووجه حسنه أنك تتوهم قبل أن يرد عليك آخر الكلمة، كالميم من – عواصم –[2] أنها هي التي مضت وإنما أتى بها **للتأكيد**، حتى إذا تمكن في نفسك ووعاها سمعك انصرف عنك ذلك التوهم ، وفي هذا حصول الفائدة بعد أن يخالطك اليأس منها "[3] .

---

[1] الدريدي ، المرجع السابق، ص:127.

[2] عواصم الواردة في بيت أبي تمام.

يمدون من عواص عواصم تصول بأسياف قواض قواضب

[3] الايضاح ، ص:396.

ومناط الحجاج هنا ، أنه يروم بها تغيير زاوية النظر لدى المتلقي، والمعبر عنها في خطاب القزويني بالجملتين: (حصول الفائدة و إبعاد اليأس)، وفي حديثه عن السجع وأنواعه وأيهم أفضل وأحسن، قال : "لأن السجع إذا استوفى أمده من الأول لطولها ثم جاءت الثانية أقصر منها كثيرا يكون كالشيء المبتور ويبقى السامع كمن يريد الانتهاء إلى غاية فيعثر دونها، والذوق يشهد بذلك ويقضي بصحته "[1].

فالاهتمام بالسامع وبالخطاب وكيف يلقى إليه هو مظهر تداولي بالأساس ، وفي مثال آخر كان قد قدمه عن لطيف السجع :" ومن لطيف السجع قول الهمذاني : كتابي والبحر وإن لم أره ، فقد سمعت خبره، والليث وإن لم ألقه تصورت خلقه ، والملك العادل وإن لم أكن لقيته، فقد لقيني صيته "[2]، والسامع وحده هو من يدرك هذا اللطف في الكلام ويستمتع به .

وأثناء كلامه عن المحسنات البديعية لاحظنا كلاما عن جانب من جوانب الاستدلال المنطقي كما يفعل أهل المنطق والبرهان ، وذلك في حديثه عن المذهب الكلامي ، " وهو أن يورد المتكلم حجة لما يدعيه على طريق أهل الكلام، كقوله تعالى : "لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا" (الأنبياء/22) وكذلك قوله تعالى : "فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لا أُحِبُّ الآفِلِينَ " (الروم/27) أي : القمر أفل وربي ليس بآفل ، فالقمر ليس بربي"[3] .

---

[1] الإيضاح،ص ، 403- 404.

[2] م ن ، ص 404.

[3] م ن، ص384.

ويمكن تمثيل ذلك على السلم الحجاجي كما يفعل الدارسون المحدثون .

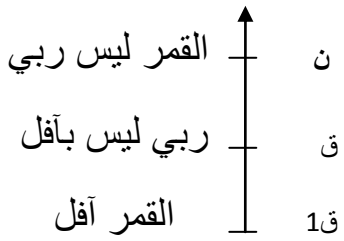

أو كما يفعل الرياضيون والمناطقة :

القمر آفـــل ←———— ق1

ربي ليس بآفل ←———— ق2

= ———————————————

القمر ليس ربي ←———— نتيجة

وخير ما نختم به هذا المبحث ، هو قول القزويني نقلا عن الشيخ عبد القاهر الجرجاني : "هو أن تكون الألفاظ تابعة للمعاني ... وقد يقع في كلام بعض المتأخرين ما حمل صاحبه فرط شغفه بأمور ترجع إلى ما له اسم في **البديع** على أن ينسى أنه يتكلم **ليفهم** ويقول **ليبين** ..."[1]إذا – فالغاية من استخدام البديع هو الإبانة عن المعاني وفهمها من قبل المتلقي وهذا يؤشر على الوظيفة الحجاجية التي يضطلع بها هذا العلم .

[1] الإيضاح ، ص :409.

- الحجاج وأفعال الكلام .

لقد شكلت نظرية أفعال الكلام محورا هاما في الدرس التداولي ، لأنها استطاعت أن تغير تلك النظرة التقليدية للغة، فهي لم تعد مجرد نقل للمعلومات فحسب، بل أصبحت قوة فاعلة في الواقع ومؤثرة فيه ، وحسب رأي (أوستين) أن المتكلم لا يصدر أصواتا فقط أثناء تلفظه ، ولكنه ينجز بعض الأفعال ، وهي بدورها تتضمن قوة إنجازيه من شأنها أن تؤثر وتغير، ومثل هذا الكلام سبقت الإشارة إليه في الجانب النظري (الفصل1).

والخطاب في تصور كل من (ديكرو وانسكومبر) هو وسيلة إخبارية تكمن غايتها في التأثير على الغير، وهذه العملية التأثرية هي التي تدعى بالحجاج [1].

وتعتبر نظرية الخبر والإنشاء عند العرب مكافئة لنظرية أفعال الكلام عند الغرب المعاصرين " والخبر والإنشاء كلاهما يشكل خطابا تواصليا إفاديا "[2]، وهذا الجانب الهام من الخطاب له حضوره القوي في البلاغة العربية عموما ، إذ يقول الباحث عبد الرحمان الحاج صالح في نقده لزعيم نظرية أفعال الكلام (أوستين): إلا أنه لم يجعل من ذلك الميزة الأساسية للغة كما فعل العلماء العرب ، إذاهتمامه –أوستين – كان منصبا كله على ما كان يعتقد أنه اكتشاف عظيم، وهو أفعال الكلام، وكون الكلام هو في أغلبه ألفاظ يراد منها إحداث شيء ..."[3] .

---

[1]– O.ducrot/ J.ANXOMBRE.l' argumentation dans la langue . p: 07.

[2] مسعود صحراوي ، المرجع السابق ، ص 82.

[3] عبد الرحمان الحاج صالح ، الخطاب والتخاطب في نظرية الوضع والاستعمال العربية ، ص244،243.

-الحجاج ببعض بنيات الاسناد الخبري باعتبارها افعال كلام .

وقد اثبت القزويني في حديثه عن أحوال الإسناد الخبري (المسند والمسند إليه)، وفي حالاته المختلفة في أغراض الحذف، والذكر، والتعريف والتنكير، والتقديم والتأخير، وفي القصر، وفي أحوال متعلقات الفعل ، وفي الإنشاء،(من تمن وأمر ونهي واستفهام...) على أنها ظواهر أسلوبية خطابية إفادية تحمل قوة إنجازيه بتعبير التداوليين، وأغراض بلاغية بتعبير علمائنا البلاغيين القدامي .

ونجد القزويني في دراسته لهذه البنيات البلاغية، أنه اشترط حصول الفائدة لدى المخاطب وهذا قريب جدا مما تدعو إليه التداولية اليوم، لأنها تدرس اللغة في سياقاتها المختلفة مراعية أغراض المتكلمين ومقاصدهم، وهذه التقنيات التي يستخدمها المتكلم لغاية إحداث التأثير بالكلام في مخاطبه ، وتقوية الحكم لديه أو تقريره في الذهن، وفي الأخير قبوله " فالمتكلم بكلامه يريد دائما إما أن يسرّ المخاطب بمدحه ، أو تبشيره ببشرى أو يريد أن يعنفه، فهو يريد دائما من وراء ما يبلغه من معان بكلامه **التأثير** "[1].

والآن سأحاول تسليط الضوء على بعض التقنيات البلاغية في مدونة الايضاح ، ورصد بعض الآليات المحاجج بها باعتبارها تمثل نظرية افعال الكلام ، منها :

[1] المرجع السابق ، .ص .245.

- **بنية التقديم والتأخير.**

فتقديم كلمة وتأخير أخرى لا شك أنه يعطي معنى آخر ، ويترك أثرا لدى المخاطب ، يقول في ذلك القزويني : وكذلك إذا قلت : بزيد مررت، أفاد أن سامعك كان يعتقد مرورك بغير زيد، فأزلت عنه الخطأ مخصصا مرورك بزيد دون غيره "[1]. ولتوضيح المسار الحجاجي أكثر في هذا الخطاب قلنا :أن المعنى المراد تثبيته وتبليغه للمخاطب هو المرور بزيدوحده، والمعنى المراد نفيه ودحضه هو خشية اعتقاد المخاطب أن المرور كان لغير زيد، ومنه نتوصل إلى أن التغيير الحاصل في الاعتقاد لدى المخاطب ، دلت عليه تلك الآلية البلاغية الموسومة **بالتقديم والتأخير**. وهو مفهوم حجاجي يمكن تعزيزه بأمثلة أخرى ، وما أكثرها في كتاب الإيضاح .

ـ بنية القصر .

ومنها قوله :" فالمخاطب بقولنا :" **ما زيد إلا قائم** " من يعتقد أن زيدا قاعد لا قائم ... وبقولنا : ما قائم إلا زيد ، من يعتقد أن عمرا قائم لا زيدا .."[2].

والمتمعن في هذا الخطاب يدرك بوضوح الأبعاد الحجاجية التي أنطوى عليها ، وهي كالأتي :

- **القضية المراد إثباتها هي** ، زيد قائم .
- **القضية المراد دحضها هي** ، زيد قاعد .
- **والآلية المتوسل بها هي**، بنية القصر بطريقة النفي والاستثناء (ما ...إلا) .

---

[1] الإيضاح، ص :115.

[2] م ن ص 123.

فالجملة الخبرية من قبيل، زيد قائم محتواها القضوي هو الإخبار والإعلام لا غير، لكن ورودها وهي محلاة بهذه الآلية (القصر) ، كان الغرض منها ثبوت الخبر في ذهن السامع والتخلي عما يتوهمه من تأويلات .

ـ بنية الحذف.

وتبرز لنا القيمة الحجاجية في الاسناد الخبري أيضا في تعرضه الى الحديث عن بنية الحذف وتبيان مزاياها الحجاجية ، يقول في ذلك :" أما حذفه فإما لمجرد الاختصار والاحتراز عن العبث، وإما لضيق المقام ... وإما تركه تعويلا على شهادة العقل ...وإما لاختبار تنبيه السامع ... وإما ليكون ذلك سبيل إلى الإنكار"[1]، فالغاية الأساس من استخدام الخطاب متضمنا هذه التقنية أو المهارة البلاغية ، هو استهداف السامع بالدرجة الأولى، والكلام المخفي يشدّ انتباه المتلقي أكثر، فهو متى لم يفهم شيئا انقطع عنصر التفاعل بين المتخاطبين باعتبار أن المتكلم مخاطب والمخاطب متكلم بالدور"[2]، وهكذا تنجح العملية التخاطبية التواصلية .

والمثال الذي قدمه القزويني كشاهد على بنية الحذف وأثرها البلاغي ، هو البيت الشعري وقد سبقت دراسته تداوليا في الفصل الثاني[3]:

قال لي : كيف آنت ؟ قلت : عليل

سهر دائم وحزن طـــــــويل .

---

[1] الإيضاح ، ص 38.

[2] الحاج صالح . المرجع السابق . ص 245.

[3] ينظر الصفحة 52.**من هذا البحث .**

والذي يهمنا هنا، هو القول الخبري : **عليل ، سهر دائم ، حزن طويل**، هي أفعال لغوية تحمل أغراضا بلاغية ممثلة في تبيان حالة االشاعر السيئة، وهذه المتواليات من الجمل الخبرية هي بمثابة الحجج والمقدمات التي أتى بها المتكلم للتأثير في متلقيه، والذي زاد من قوة التأثير في هذه الجمل ــ درجة الشدة بتعبير(ج سورل) ـ هي بنية الحذف، فتقدير الكلام عندما نملأ الحيز الشاغرة تصبح كالآتي :

(**أنا** عليل) و(**حالي** سهر دائم وحزن طويل) ، والكلام المقتضى والمطوي في أسلوب الحذف هو حيز شاغر على مستوى التركيب يجبر المتلقي على وجوب ملئه .

لذا نقول أن الكلام في مثل هذه الحالة نصفه هو من صنع المتكلم، ونصفه الأخر الضمني هو من صنع المتلقي، وبهذا يحصل التفاعل بين المتخاطبين بعدّه صفة أساسية في الكلام.

وليس الحذف الذي نريده بالدراسة ذلك الذي عرفه الدرس النحوي ، بل نريد بالحذف الذي يؤدي المعاني والمقاصد، " حتى يصل تأثير القول الذي فيه الحذف إلى تحريك نفس السامع "[1].

وإجبار المخاطب على المشاركة التفاعلية في فهمه لهذه المعاني المطوية في بنية الحذف يعد وجهة حجاجية تداولية بامتياز .

[1] عبد السلام عشير: عندما نتواصل يتغير، ص 77.

- ***الحجاج بالجملة الانشائية .***

باستطاعتنا القول أن الجملة الإنشائية تمثل ظاهرة أفعال الكلام بصورة أوضح وأجلى فكثيرا ما يتعرض الدرس البلاغي إلى الجانب المجازي لهذا الأسلوب، ومن ثمة نقول أنها تؤدي وظائف تداولية من خلال عملية القصد ، ووظائف حجاجية، لأنها تروم التأثير والإقناع، وهذه الأفعال التي تتضمنها هذه الأقوال لا شك أنها ذات طابع تأثيري يلجأ إليها المخاطب في مقامات تواصلية معينة، فكل من هذه الأساليب إن أمرا وإن استفهاما أو تمن أو نداء ...إلخ، إلا ولها أغراض بلاغية بتعبير القدامى ، ،ولها وظائف بتعبير الوظيفيين، وهي أفعال متضمنة في القول بتعبير التداوليين .

وسوف نحلل بعض النماذج من كتاب الإيضاح ونوضح كيف تعمل هذه الأفعال اللغوية حجاجيا .

-حجاجية الاستفهام.

يندرج هذا الأسلوب ضمن الأفعال الانجازية والمعبر عنه عندنا بالسؤال البلاغي، والذي هو شكل مخصوص من أشكال خروج الاستفهام عن أصل معناه، وهو ليس استخبارا أو طلب جواب، بل هو وسيلة حجاج، يكون هذا السؤال عوضا عن جملة خبرية تكون منفية أو مثبتة ".[1]

ويذهب القزويني في بيان مسار الحجاج لهذا الأسلوب ، كالذي ورد في قوله تعالى :"كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَكُنتُمْ أَمْوَاتاً فَأَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ" (البقرة 28)، أي كيف تكفرون والحال أنكم عالمون بهذه القصة "[2]، والسؤال هنا مستعمل للتقريع والتوبيخ ، جاء مقرونا بجملة من الحجج ، وهي : الحياة بعد الموت ، والموت بعد الحياة، والرجوع والى الله،ومع ذلك لم

[1] عبد الله صولة : الحجاج في القرآن ، دار الفرابي بيروت ، لبنان ، ط2 (2007) ، ص 425.

[2] الإيضاح ، ص147.

يثبت الإيمان في قلوبكم، ومنه وجب تقريعهم حتى يؤمنوا بالله ، فهذا الاستفهام يحمل ضمنيا حجة قوية تفضي إلى الإقناع بأن الله يستوجب الإيمان به ـ إذن ـ وكما قال الحاج صالح :"أن الكلام في التخاطب ليس الغاية منه التعبير عما في النفس ... فهذا وإن كان حاصلا فليس هو الهدف الحقيقي ... بل الهدف الرئيسي هو **التأثير بالكلام على الغير**[1].

وتظهر لنا القيمة الحجاجية للأسلوب الاستفهامي في أن السؤال في أصل وضعه يتطلب جوابا ويهدف إلى طلب الإفهام ، فيجعل المسؤول يفكر ثم يقنع ثم يجيب بالفكرة التي اقتنع بها عقله وأحسّ بها وجدانه، وكأن واضع السؤال (المستفهم) يقوم بعملية استدراج المتلقي والوصول به إلى ما يريده منه المتكلم .

حجاجية الأمر والنهي.

يرى الأصوليون أنه بمعرفة الأمر والنهي تتم معرفة الأحكام الشرعية ، وعليها يترتب التشريع بكامله، وهي إشارة سبقية منهم إلى أن هذين الأسلوبين يمثلان صفة الإنجازية في أفعال الكلام حق تمثيل، قبل أن يتحدث عنها اللغويون الغربيون المعاصرون امثال ، (أوستين وسورل وغيرهم).

والجانب التداولي في هذا النوع من الأساليب يكمن في خروجها من المعنى المقالي إلى المعنى المجازي المقامي ، وفي ذلك يقول القزويني : ثم إنها ـ أعني صيغة الأمر ـ قد تستعمل في غير طلب الفعل بحسب مناسبة المقام كالإباحة ... ومنها النهي ، وقد يستعمل في غير طلب الكف أو الترك كالتهديد"[2] .

[1] الحاج صالح ، المرجع السابق، ص 245.

[2] الإيضاح ،ص 147،149.

والاستعمال المقصود هنا هو خروجهما عن حقيقتهما للدلالة على معان أخرى ، تخص الموجه إليه هذا الأسلوب ،إن أمرا وإن نهيا، وفي كتاب الايضاح نجد أمثلة كثيرة منها قول القزويني :"...التهديد كقوله تعالى " اعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ ". (فصلت 40)، والتسخير نحو :كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ" (البقرة 65) ، والتعجيز نحو :" فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِنْ مِثْلِهِ"(البقرة، 23) [1].

والملاحظ على هذا النص أنه تضمن أفعالا إنجازيه مباشرة من قبيل : **كونوا اعلموا فاتوا** ، وهي ظواهر أسلوبية إفادية ذات طابع حجاجي ، لأنها استطاعت أن تحقق عدة نتائج، منها : جعل المتلقي في حالة تهديد في الآية الأولى، بعدما كان امنا، وجعله حقيرا ومحل سخرية مكان العزة والكرامة التي كان ينعم بها، و في المثال الأخير وجدنا المخاطب عاجزا بعدما كان يدعي المقدرة . ومنه نخلص إلى نتيجة مفادها أن هذه البنية الأسلوبية (الأمر) أدت وظيفة حجاجية ، لمسناها في إبطال لتلك الدعاوى من قبل المتلقين أو بالأحرى الموجه إليهم الخطاب القرآني ، ودعوتهم ضمنيا إلى التغيير من زاوية نظرهم والتعديل من سلوكهم ، وهنا يصبح التهديد والسخرية والتعجيز حججا في حد ذاتها تخدم غاية كبرى ، هو التغيير من حال المخاطبين، ويمكن رسمها كالآتي :

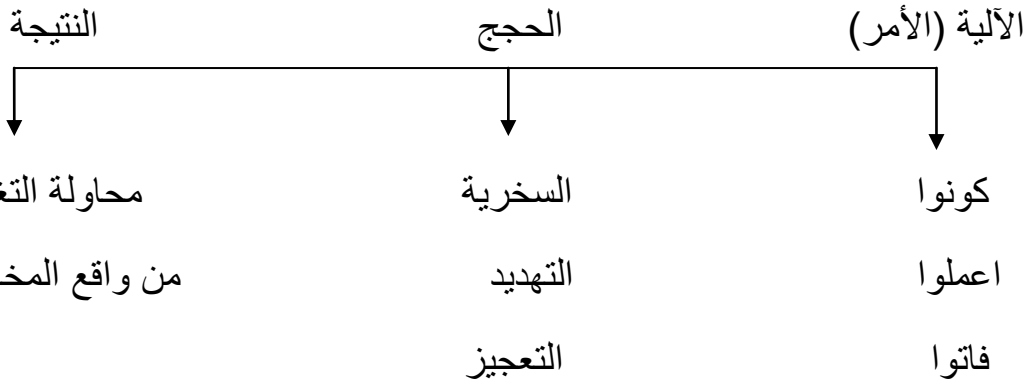

[1] الإيضاح ، ص 148.

ختاما، إن الآليات البلاغية المتوسل بها من خبر وإنشاء و تشبيه واستعارة وكناية وبديع ، قد أثبتت نجاعتها في توجيه المخاطب، و حمله على مشاطرة المتكلم رأيه والتصرف وفق ما يرضاه . ووجدنا في كتاب الإيضاح ما يعزز هذا ، إذ كل الأساليب البلاغية التي تناولها بالتحليل تهدف بالأساس إلى التحريض والإقناع والحجاج، وتسعى إلى تغيير أفكار المتلقي ومعتقداته ، مما يدل على تقدم المقاربة العربية للتراكيب اللسانية (النظم) ، الذي يعد جوهريا في تحليل الخطاب، قبل أن يؤكد ديكرو أن الاستعمال الاقناعي ليس شيئا مضافا إلى اللغة بل إنه موجود في نظامها الداخلي والموسوم عنده بالتداولية المدمجة .

خاتمـــة

خاتمـــــــة .

إلـى هنـا وبعـد هـذه الجولـة فـي رحـاب مدونـة الإيضـاح، يكـون هـذا البحـث قـد اسـتوفى ـ بعون الله ـ فصوله ومباحثه ، وبما أن مسعانا من هذا العمل هو البحث عن تجليات القضايا التداولية في البلاغة العربية القديمة يمكن القول : أن بلاغة القزويني قد استجابت وبشكل لافت للانتباه للدراسة الحديثة وتطاوعت مع المناهج المعاصرة وبالخصوص عندما توسلنا تلك المكتسبات المحسوبة على الدرس التداولي المعاصر ، والتي خلصت بنا النتائج التالية :

من خلال الفصل الأول ، يمكن اعتبار القرن العشرين منعطفا حاسما في مجال الدراسة اللغوية، إذ يعد ما جاء به رواد فلسفة اللغة الطبيعية التحليلية أمثال ،(فريجه، فنغينشتاين، وروسل، ثم بعدهم أوستين وسورل وقرايس...الخ) ثورة على تلك النظرة الشكلية القديمة إلى اللغة ، على خلفية إن اللغة خطاب تواصلي إبلاغي تفاعلي بين البشر، وينبغي أن تكون دراستها في استعمالاتها الطبيعية وممارستها العادية .

وأهم ما جنيناه من هذا الفصل أن التداولية مشروع واسع في المنظومة الفكرية نظرا لتعدد روافدها وكذا تقاطعها مع حقول معرفية عديدة مثل ، الفلسفة ، البلاغة ، اللسانيات ، علم النفس ، علم الاجتماع ...الخ، وهو الشيء الذي صعب من إيجاد تعريف شامل ودقيق لها، بالإضافة إلى تعدد المسميات العربية المقابلة للمصطلح الأجنبي Pragmatique فترجمت مرة بالبراغماتية ومرة بالمقامية ، والسياقية والذرائعية ...الخ .

وما توصلنا إليه أيضا من خلال الفصلين التطبيقين:(الثاني والثالث) يمكن حصره في الآتي :

– تعد نظرية أفعال الكلام محور الدرس التداولي، ففي رأي كثير من أقطاب هذه النظرية أن وظيفة اللغة ليس في وصف الواقع والإخبار عن الحالات ، بل تتعدى وظيفتها إلى تغيير هذا الواقع باعتبار كل قول هو عمل أو إنجاز ، وفي بلاغة القزويني وجدنا ما يتقاطع مع هذا المفهوم التداولي ممثلا في الحديث عن **الخبر والإنشاء** ،إلى جانب أن المعيار المعتمد في التفريق بينهما هوالصدق والكذب باعتبار مطابقتهما للنسبة الخارجية .

ويتضح لنا هذا التطابق أكثر بين البلاغتين في كلام الفيلسوف(سورل) عن قانون الشدة أو القوة في الأفعال الانجازية، والمعبر عنه عند القزويني بمفهوم ، "**أضرب الخبر**" وهذه القوة في مثل هذه الأفعال هي موجودة بكثرة في بلاغتنا بفعل وفرة أدوات التوكيد .

وهذا التقاطع والتعالق في المفاهيم بين البلاغة القديمة التي يمثلها ــ هنا ــ كتاب الإيضاح، والبلاغة الجديدة ممثلة في الدرس التداولي عموما ليس محصورا في نظرية أفعال الكلام فقط ، بل أن المدونة القزوينية ثرية واستطاعت أن تذر علينا بجملة من المفاهيم نراها عناصر مشتركة بين البلاغتين ، وإن عبر عنها بمصطلحات متمايزة من ذلك :

* اهتمام بلاغة القزويني بعناصر الخطاب كاملة ، بداية بالمتكلم الذي جعله سيد الموقف من حيث كفاءته اللغوية ، ثم مقصديته من الخطاب ، وكذلك معرفة أحواله أثناء ممارسته للكلام، وما هو الموقف النفسي والاجتماعي الذي أطر كلامه ... إلى غيرها ، ولا تقل حظوة السامع (المخاطب) في الكتاب عن المتكلم باعتباره المكمل للعملية التخاطبية، فهو الذي يسمع ويبحدث ثم يفهم ويؤول وفي الأخير يستجيب ويتأثر .

والعنصر الثالث من عناصر العملية التخاطبية هو الاهتمام بالخطاب ذاته (الكلام) باعتباره الجسر الرابط بين الذوات المتكلمة في نظر التداوليين ، وهذه العناصر الثلاثة قد

تنبه لها القزويني مبكرا من خلال حديثة عن البنيات الأسلوبية المختلفة، من حذف وقصر وتقديم ، وتأخير ، ووصل وفصل ، والتفات ... الخ، وهي كلها استراتجيات خطابية كشفت لنا وبعمق عن مدى تقدم الدرس البلاغي واحرازه السبق في كثير من قضايا الدرس التداولي المعاصر ، ونأخذ على سبيل المثال قوانين الخطاب التي أطرت عمل الفيلسوف (ب ، قرايس) ، وخاصة مبدأ الملاءمة الذي مؤداه ، **ليناسب مقالك مقامك** ، هو مبدأ أساس ، قد عرفته البلاغة العربية بمفهوم **لكل مقام مقال** ،وأطرته بلاغة القزويني بمفهوم مطابقة الكلام لمقتضى الحال .

وأوصلنا البحث إلى أن فكرة التوسع في المعنى عن طريق عدول الخطاب عن التصريح المباشر إلى معنى مضمر غير صريح ، والمعبر عنه بمفهوم القصدية لدى التداوليين المعاصرين ، وبالأغراض البلاغية بتعبير القدامي، اذ لا يعول – دائما – في الوصول الى هذه المعانى غير المباشرة على الكفاءة اللغوية وحدها ، بل يستوجب التعويل على قيمة تداولية أخرى مضافة إلى هذا الحقل المعرفي ، والمعبر عنه بفكرة السياق(المقام) .

وفي الفصل الثالث والذي خصصناه للمنحى الحجاجي في مدونة القزويني أسفر البحث عن النتائج التالية:

* ان جميع الآليات البلاغية أو البنيات الأسلوبية التي تضمنها الكتاب كانت ذات طابع حجاجي بامتياز، لأنها تروم في جوهرها إقناع المتلقي ، ومحاولة التأثير فيه، فما من تقنية بلاغية إلا ومن ورائها هذا الهدف .

وفي ذلك توافق كبير مع مباحث الحجاج في البلاغة الحديثة ، LA NOUVELLE RHETORIQUE ، مع (بيرلمان ، وتيتكا ،وديكرو)، في نظرتهم الى اللغة على أنها ذات طبيعة حجاجية .

ومن خلاله توصلنا أيضا إلى ضرورة توحيد المفهوم بين الحجاج والإقناع ، و أنهما جزءان من عملية واحدة ولا اختلاف بينهما في الدراسة المعاصرة .

إجمالا ، إن نظرة القزوزيني إلى اللغة جعلته ينتصر للتفاعل الحاصل بين جميع العناصر التخاطبية من أجل تحقيق التواصل الناجح والأمثل ، ومثل هذا الاهتمام هومن صميم الدرس التداولي حاليا .

ووصلنا أيضا إلى أن هذا التراث اللغوي لا يمكن تجاوزه أو قطع الصلة معه بأي دعوى من الدعاوى المغرضة من قبيل ، الحداثة أو مواكبة العصر أوالعولمة والتجديد ، بل هو لفي أشد الحاجة الى من يبعثه من جديد ، ويزيل عنه غبار النسيان .

ونحن إذ نختم هذا البحث فأملنا أن نكون قد أجبنا على تلك التساؤلات التي قمنا بطرحها قبل أن نخوض في هذه المغامرة الاستكشافية عبر هذه المدونة التراثية الثرية والتي مازالت تحتاج إلى قراءات أخرى ومن زاوية معرفية جديدة تتماشى والطروحات الفكرية المعاصرة .

وفي الأخير نقول لقارئ الرسالة :

إن تجـــد عيبـــا فســـد الخلـــلا

جـــلّ من لا عيب فيه وعـــــلا .

قائمة المصادر والمراجع

فهرس المصادر والمراجع .

- القرآن الكريم .

أولا : الكتب العربية والمترجمة :

1- أرسطو (طاليس) ، كتاب الخطابة، ترجمة إبراهيم سلامة ، مكتبة الأنجلو المصرية، مصر، ط3 ، (1953) .

2- أدراوي العياشي، الاستلزام الحواري في التداول اللساني، دار الأمان ، الرباط ، ط1، 2011.

3- أوسان (أيت علي) ، السياق والنص الشعري من البنية إلى القراءة، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء، المغرب، ط1، (2000) .

4 - ابن الأثير (نصر الله بن محمد) المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر، تح محمد محي الدين، المكتبة العصرية، بيروت ، لبنان (1990).

5- أوستين (جورج)،افعال الكلام العامة ، ترجمة عبد القادر فنيني ،إفريقيا الشرق ،ط1 1991،

6 - بوجادي (خليفة) ، في اللسانيات التداولية ، مع محاولة تأصيلية في الدرس العربي القديم، بيت الحكمة ، سطيف ، الجزائر،ط2، (2012).

7- بلخير(عمر) ، تحليل الخطاب المسرحي في ظل النظرية التداولية، منشورات الاختلاف، الجزائر.

8- بكري (شيخ أمين)، البلاغة العربية في ثوبها الجديد ، علم المعاني، دار الملايين ، بيروت لبنان .

9-بارت (رولان)، قراءة جديدة للبلاغة القديمة ، ترجمة عمر أوكان، إفريقيا الشرق ، المغرب، ط1، 1994.

10- بغورة (الزواوي) ، الفلسفة واللغة، نقد المنعطف اللغوي في الفلسفة المعاصرة، دار الطليعة للنشر، بيروت ، لبنان، ط1، 2005.

11- البخاري(أبو عبد الله محمد) ، صحيح البخاري، دار الفكر للطباعة والنشر، بيروت، لبنان، 1981.

12- تمام (حسان) ، اللغة العربية معناها ومبناها، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ط2، 1979م .

13- الجاحظ (عمر بن بحر) ، البيان والتبيين ، تح وشرح عبد السلام هارون، دار الجيل، بيروت ، لبنان (د، ط) .(د ت)

14- الجرجاني (عبد القاهر) ، دلائل الاعجاز في علم المعاني ، تح محمود محمد شاكر ، محمود المدني ، القاهرة ، ط3، 1992م .

15- أسرار البلاغة، تح محمد الفاضلي ، المكتبة العصرية ، صيدا، بيروت، ط2، 1999.

16- الجرجاني (الشريف علي بن محمد) ، التعريفات، دار الكتب العلمية، بيروت ، لبنان ،ط3، 1988.

17- ابن جني(أبو الفتح عثمان) ، الخصائص، تح علي النجار ، عالم الكتب بيروت ، لبنان (2006).

18- الحاج صالح (عبد الرحمان)، الخطاب والتخاطب في نظرية الوضع والاستعمال العربية ، المؤسسة الوطنية للفنون ، مطبعة الرغاية ، الجزائر ، ط1، 2012.

19- الحباشة ، (صابر)، التداولية والحجاج ، مداخل ونصوص صفحات للدراسة والنشر،دمشق سوريا ،ط1 2008

20- الخفاجي(ابن سنان) ، سر الفصاحة ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، لبنان ، ط1، 1982.

21- ديك (فان) ، النص والسياق، ترجمة عبد القادر قنيني ، افريقيا الشرق، بيروت ، لبنان .

22- الدريدي (سامية)، الحجاج في الشعر العربي القديم (من الجاهلية الى القرن الثاني الهجري) بنياته وأساليبه، عالم الكتب الحديثة، ط1، 2001.

23- دلاش (الجيلالي) ، مدخل الى اللسانيات التداولية، ترجمة محمد يحياتن، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 1992.

24- ابن رشيق(القيرواني) ، العمدة في محاسن الشعر آدابه ونقده ، تح عبد القادر أحمد عطا ، دار الكتب العلمية ، بيروت، 2001م .

25- الزركشي (بدر الدين) ، البحر المحيط في أصول الفقه، تح عبد القادر عبد الله وسليمان الأشقر، الكويت ، ط2، 1992.

26- الزمخشري (جار الله أبو القاسم) ، أساس البلاغة ، دار الفكر بيروت ، لبنان (دط)، 2000 .

27- السكاكي (أبو يعقوب) ، مفتاح العلوم، دار الكتب العلمية ، بيروت ، لبنان ، ط2، 1987.

28- سيبويه (أبو بشر، عمرو بن عثمان) ، الكتاب، تح عبد السلام هارون ، دار الجيل بيروت، ط1، (دت) .

29- السيوطي، (جلال الدين) ، الاقتران في أصول علم النحو، تح، محمد حسين اسماعيل الشافعي، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1، 1998.

30- المزهر في علوم اللغة وأنواعها، دار الجيل بيروت، لبنان، د ت، د ط.

31- سعفان(كامل علي) ، المنهج البياني في تفسير القرآن الكريم، مكتبة الأنجلو مصرية، دط ،1918.

32- سوسير (فردينان دي)، علم اللغة العام، ترجمة يوئيل، ، دار الكتب للطباعة والنشر، بغداد العراق، 1988م.

33- صحراوي (مسعود) ، التداولية عند علماء العرب دراسة تداولية لظاهرة أفعال الكلام في التراث اللساني ، دار التنوير، الجزائر، ط1. 2008

34- صولة (عبد الله) ، الحجاج في القرآن، دار الفرابي، بيروت، لبنان،ط2 ،2007.

35- طه(عبد الرحمان)،اللسان والميزان والتكوثر العقلي، المركز الثقافي العربي الدار البيضاء ، المغرب ، ط1 ، 1998.

36- في أصول الحوار وتجديد علم الكلام، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء ، ط2، 2000.

37- طالب الابراهيمي(خولة) ، مبادئ في اللسانيات، دار القصبة للنشر، الجزائر،2000.

38- ابن ظافر الشهري(عبد الهادي)، استراتيجيات الخطاب، مقاربة لغوية تداولية ،دار الكتاب الجديد ، بنغازي ، ليبيا، ط1، 2004م .

39- عكاشة (محمود) ، النظرية البراغماتية واللسانية، مكتبة الآداب القاهرة ، 2013.

40- عشير(عبد السلام) ، عندما نتواصل نغير، مقاربة تداولية، إفريقيا الشرق ، المغرب ، 2012.

41- العسكري (أبو هلال)، الصناعتين، الكتابة والشعر، تح علي محمد بجاوي ، منشورات المكتبة العصرية ، صيدا ، بيروت ، 1986.

42- الفروق في اللغة ، منشورات الآفاق الجديدة ، بيروت ، ط4، 1997.

43- العزاوي (ابو بكر) ، اللغة والحجاج ، دار الاحمدية للنشر ،الدار البيضاء ، ط1 2006

44- حوار حول الحجاج، الأحمدية للنشر، الدار البيضاء،ط1، 2010.

45- العمري(محمد) ، البلاغة العربية ، أصولهاوامتداداتها، افريقيا الشرق ، المغرب، 1999.

46- الغزالي(أبو حامد) ، المستصفى من علوم الأصول، دار إحياء التراث العربي بيروت ،ط3،(د ت).

47- فرانسواز (أرمينكو) ، المقاربة التداولية، ترجمة سعيد علوش ، مركز الانماء ، المغرب ، (د ت).

48- فضل(صلاح) ، بلاغة الخطاب وعلم النص، الشركة العالمية المصرية ، للنشر لونجمان، ط1، 1996.

49- الفيروز أبادي ، (مجد الدين) ،القاموس المحيط، دار الجيل، بيرو، د ت)

50- ابن فارس (أحمد)، مقاييس اللغة، تح عبد السلام هارون ، دار الجيل ، ط2، 1991.

51- الصاجي في فقه اللغة، تح، مصطفى الشويمي بدران، بيروت، 1963.

52- **القزويني(الخطيب محمد بن عبد الرحمان) ،الايضاح في علوم البلاغة** تح عبد المنعم خفاجي ، دار الكتب العلمية، بيروت ، لبنان، (د،ت). (د ط).

53- القرطاجني (حازم) ، منهاج البلغاء وسراج الأدباء، تونس، (د ،ط)1966.

54- ابن قتيبة (عبد الله) أدب الكاتب

55- مقبول (إدريس) ، الأسس الابستمولوجية التداولية للنظر النحوي عند سيبويه، عالم الكتب الحديث، الاردن ، ط1، 2007.

56- مرتاض(عبد المالك) ، نظرية النص الادبي، دار هومة ، للطباعة ، الجزائر، 2007.

57- ابن منظور (جمال الدين) لسان العرب، دار صادر بيروت، ط1، 1955.

58- محمد (سالم محمد)، الحجاج في البلاغة المعاصرة، بيروت، لبنان، ط1، 2008.

59- المتوكل (أحمد)، قضايا اللغة العربية في اللسانيات الوظيفية، دار الآمان ،الرباط، 1995م.

- الوظيفة بين الكلية والنمطية ، دار الامان والرباط، ط1، 2003.

- اللسانيات الوظيفية، مدخل نظري، منشورات، عكاظ ، المغرب 1989

60- نحلة (محمود أحمد)، أفاق جديدة في البحث اللغوي المعاصر، دار المعرفة الجامعية، مصر 2002.

61- يول(جورج) ، التداولية ،ترجمة قصي العتابي ، الدار العربية للعلوم، بيروت، لبنان، ط1، 2010.

62- موشلار (ألان جاك)، التداولية اليوم علم جديد في التواصل، ترجمة سيف الدين دغفوس ومحمود الشيابي، دار الطليعة ، بيروت، ط1، 2003

ثانيا : الدوريات

1 - مجلة المخبر ، جامعة محمد خيضر ،بسكرة ، العدد السابع ، 2011

2ـ مجلة عالم الفكر،(الحجاج) ، مجلة دورية محكمة ، الكويت، المجلد 40..(أكتوبر ديسمبر)2011.

3ـ مجلة اللغة والأدب، جامعة الجزائر، العدد 17، جانفي ،2006.

- **ثالثا : المراجع باللغة الأجنبية .**

1- DUCROT (OS WALD) : DIRE ET NE PAS DIRE(PRINCIPES DE SEMONTIQUE LINGUISTIQUE .COLLECTION SAVOIRE.SCIENCES.HERMANN 3ENE EDITION .PARIS. FRANCE. OCTOBRE.1991.

2- DUCROT (OSWALD): LES ECHELLES ARGUMENTATIVES..EDITION DE MINUIT PARIS.FRANCE.

3- DUCROT/ ET .J .ANXOMBRE ،L'ARGUMENTATION DANS LA LANGUE

4- MAINGUNEAU(DOMINIQUE).PRAGMATIQUE POUR DISCOURS LITTERAIRE COLLECTION LETTRES .SUPDUNOD.PARIS-FRANCE 1997.

فهرس الموضوعات

فهـــــــرس الموضـــــــــوعـــــات

مقدمـــــة .....(أ . ب .ج . د)

مدخـــــل.....(1-10)

الفصـــــــل الاول .

الجهـاز المفـــاهيمي للـــــدرس التـــداولي .

1 - المفهوم المعجمي والاصطلاحي للدرس التداولي 11

2 - نشأة التداولية 17

2 -1- مرحلة الارهاصات 18

2 -2- مرحلة النضج والاكتمال.....21

3 - مجالات البحث التداولي 31

4 ـ علاقة التداولية بحقول معرفية أخرى 37

4 -1 - علاقتها باللسانيات 37

4 -2- علاقتها بالنحو.....37

4-3 - علاقتها بعلم الدلالة 39

4-4 - علاقتها بعلم النفس وعلم الاجتماع.....39

4-5- علاقتها بعلم البلاغة 41

5 - مهام الدرس التداولي 42

الفصـــــــل الثانـــي .

أبـرز المفاهيـم التداولية في كتاب الايضـــاح .

1- أفعال الكلام وثنائية الخبر والإنشاء 46

1-1- أفعال الكلام في التراث العربي 46

1-2- أفعال الكلام وأسلوب الخبر 48

1-3- أفعال الكلام وأسلوب الإنشاء.....54

2- أشكال التداولية في الكتاب (عناصر التخاطب)

2-1-الاهتمام بالمتكلم (المرسل).....60

2-2- الاهتمام بالمخاطب (السامع).....63

2-2-1- مبدأ التهذيب في الكلام 67

2-2-2- بنية الحذف والذكر باعتبار حال السامع 70

2-2-3- بنية التقديم والتأخير ودور السامع.....72

2-2-4- بنية القصر وموقف السامع منه 74

2-3 - الاهتمام بالخطاب ذاته (الكلام).....75

3- متضمنات القول 81

4- قوانين الخطاب.....87

5- القصدية في الخطاب 92

6- السياق والمقام 94

7-الإحالة بالإشاريات (المبهمات) 98

الفصل الثالث :

الآليات البلاغية للخطاب الحجاجي في كتاب الايضاح.

1- مفهوم الحجاج.....103

2- الحجاج في الفكر اللغوي قديما وحديثا 106

3- بعض البنيات الأسلوبية للخطاب الحجاجي في الكتاب.....116

3-1 الحجاج بالمجاز 117

3-2 الحجاج بالتمثيل 119

3-3 الحجاج بالاستعارة.....124

3-4 الحجاج بالكناية 128

3-5 الحجاج ببعض البنيات البديعية.....132
3-6- الحجاج بأفعال الكلام.....138

3-6-1 الحجاج ببعض بنيات لأسناد الخبري.....139
3-6-2 الحجاج بالجملة الانشائية 143

الخاتمة 148
قائمة المصادر والمراجع 153
فهرس الموضوعات 161
ملخص الرسالة باللغة اللعربية والإنجليزية والفرنسية .